

المركز القومى للترجمة
رحلة عالي بك
إلى العراق
العثماني والهند
تأليف: عالى بك
ترجمة: محمد حرب
2231



فـى هـذه الرحلـة زار عالـى بـك العـراق العثمانـى وخليـج البصـرة (الخليـج العربـى) والهنـد، كذلـك القاهـرة فـى رحلـة العـودة. ومـن البدايـة يقـرر المؤلـف أنـه لـم يقصـد فقـط سـرد الأحـداث وكتابـة يوميـات مهمتـه، إنمـا الهـدف الأساسـى هـو إعطـاء معلومـات عـن المـدن والأماكـن النائيـة التـى يجهلهـا النـاس ورجـال الدولـة فـى العاصمـة، فيقـول: "لا تتمثـل ميـزة أحـداث هـذه الرحلـة فـى سـرد مـا شـاهدناه، بـل عـن الأحـوال والعـادات المجهولـة لدينـا عـن الأماكـن البعيـدة كالعـراق وبعـض مـدن الهند".

وممـا يعطـى أهميـة كبـرى للرحلـة وللمعلومـات الـواردة بهـا، كـون المؤلـف رجـل دولـة مـن الطـراز الأول؛ فهـو أحـد كبـار المسـؤولين فـى الدولـة العثمانيـة، وتنقـل فـى عـدة مناصب عليا، كما أنه طاف العديد من بلدان أوروبا.

تصميم الغلاف : جاسر ممدوح

رحلة عالى بك

إلى العراق العثمانى والهند

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2231
- رحلة عالى بك إلى العراق العثمانى والهند
- عالى بك
- محمد حرب
- اللغة: التركية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:

سياحت ژورنالى

عالى بك

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

رحلة عالى بك

إلى العراق العثمانى والهند

تأليف: عالى بك
ترجمة: محمد حرب



2015

عالى.
رحلة عالى بك إلى العراق العثمانى والهند/
ترجمة: محمد حرب. ـ القاهرة: الهيئة المصرية
العامة للكتاب، ٢٠١٥.
١٤٠ص: ٢٤ سم.
تدمك ٢ ٠٣٥٢ ٩٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الرحلات فى الأدب العربى.
٢ ـ العراق ـ وصف ورحلات.
٣ ـ الهند ـ وصف ورحلات.
أ ـ حرب، محمد. (مترجم)
ب ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٤١٨/ ٢٠١٥
I. S. B. N 978 - 977 - 92 - 0352 - 2

ديوى ٨١٠,٩٠٣١

المحتويات

كلمة المترجم

إن النثر العربى غنى ومتنوع، وممتد عبر كل العصور العربية، وقد حمل ـ مثله مثل الشعر ـ خصائص لغتنا العربية وخصائص كل مرحلة حضارية يمر بها المجتمع العربى، وللنثر الأدبى أنواعه وخصائصه المميزة، ولكنه لم يأخذ حقه من الدراسة كما أخذ الشعر العربى، فقد وضعت الظروف التاريخية والحضارية ـ بعامة ـ الشعر العربى كأهم نوع أدبى يكتبه الإنسان العربى خلال كل عصورها مما جعل النثر يتوارى قليلا فى الحياة الأدبية مقدمًا الشعر أمامه، حتى إن الأنواع الأدبية النثرية كانت تتوسل بالشعر؛ ليزداد النوع النثرى تشويقًا وجذبًا باهتمام القارئ والمجتمع على السواء، ولقد أضافت سيرة النبى (ﷺ) نوعًا أدبيا مختلفًا عن سير الملوك والأبطال؛ حيث كانت بداية لكتابة سير الصحابة والخلفاء الصالحين ثم سير المشهورين من العظماء فيما بعد، ثم فى كتابة الرحلة نوعًا أدبيًا جديدًا يهتم بالسفر بين البلاد مؤرخًا واصفًا وملاحظًا.

وقد ثبتت أشكال بعض الأنواع الأدبية النثرية، واستطاع فن كتابة الرحلة أو أدب الرحلة أن يتطور مع الرحلة نفسها بتطور الأسباب التى تدعو إليها.

إن أدب الرحلة اكتشاف للذات وللآخر وللمكان وللزمان قديمًا وجديدًا، فالرحالة كالمكتشف يطارده دائمًا إحساس عن الإنسان والزمان والمكان فى كل مرحلة يصل إليها أو يفكر فى الوصول إليها.

أدب الرحلة أدب قديم وقصصه أقدم، وهو يعود إلى قدم الوعى الإنسانى بهذه الرحلة وبأدبها الشفاهى منه والمدون، فمنذ خرج الإنسان إلى الصيد فى

البر ثم البحر وهو يقصص على أهله وأصدقائه ما رآه وعايشه، واصفًا المواقف التى تعرض لها مع الطبيعة ومع الآخرين، والراوى هو البطل بطبيعة الحال فى هذا اللون من القصص، إذ لا بد أن تتمحور الأحداث حول البطل الراوى، ولا بد أن يكون لمثل هذا اللون من القصص قدرة خاصة على الحكى والتذكر وتنظيم معطيات الرحلة، ووصف رؤية خاصة هى ما تصنع خصوصية الرحلة وخصوصية أسلوب كتابتها.

والرحلة تختلف باختلاف الغرض منها؛ فهناك رحلة العمل (كما فى رحلة عالى بك إلى العراق العثمانى والهند) التى بين أيدينا الآن، ورحلة البحث عن مصادر العيش لاستمرار الحياة، وهناك رحلات الاكتشاف والسياحة، وهناك رحلات الأدباء للتعليم أو المشاركة الأدبية فى الندوات... إلخ.

وهى بلا شك رحلات تحكى وتؤرخ، ويتوقف الحكى والتاريخ على القدرات الصياغية لدى الرحالة، وعلى الرغبة فى التسجيل والتوثيق، بل على التوجه الموضوعى أو الذاتى فى كتابة الرحلة لها.

وفى تاريخ كل شعب من الشعوب أسماء لا يضعف الاهتمام بها على مر السنين، بل يزيد هذا الاهتمام فى فترات زمنية معينة عندما نعيش هذه الفترة ونتأثر بها.

فما سر هذا الاهتمام؟ هل يكمن فى غموض أو جاذبية هذه الأسماء أم يعود إلى مقدار ما أسهم به أحدهم فى تاريخ ثقافات هذا الشعب أو غيره؟ وقد يكون لهذا الإسهام أهمية بالغة ينحنى أمامها كل جيل جديد بكل تقدير وعرفان لما تركوه يجددون لهم العهد والتقدير، نذكر من بين هؤلاء عالى بك العثمانى الذى كان يشغل منصب مدير الديون العمومية بالدولة العثمانية، كما كان صحفيًا وكاتبًا مسرحيًا، وكلف بالتفتيش على نواحى سعرد وديار بكر إلى جانب إدارة الديون العمومية والواردات المخصصة، ولا تتوافر عنه معلومات إلا ما سبق ذكره، وتتميز أحداث هذه الرحلة بأنها تعطى صورة شاملة عن الأحوال والعادات المجهولة لدينا عن الأماكن البعيدة كالعراق ومدنها والهند وبعض مدنها.

وهذا النص مخطوط ومكتوب باللغة التركية العثمانية، ونسخته الوحيدة موجودة فى مكتبة السلطان عبدالحميد الثانى فى إستانبول.

أ.د./ محمد جرب

البحرين: ٢٠٠٣ / ٢٠٠٤

لا تتمثل ميزة أحداث هذه الرحلة فى سرد ما شاهدناه فقط؛ بل لها ميزة أخرى، وهى إعطاء صورة شاملة عن الأحوال والعادات المجهولة لدينا عن الأماكن البعيدة كالعراق، وبعض مدن الهند.

وقد اكتفينا بالطبع بذكر أسماء المدن التى مررنا عليها ورأيناها كالبانوراما فى الطريق، أو المدن التى يُظن أنها معلومة لكل شخص.

وقد غضضنا الطرف عن وصف المدن التى يظن أنها معلومة للجميع، واكتفينا بذكر أسمائها فقط.

كُلفت بالتفتيش على نواحى سعرد وديار بكر برتبة مفتش عام من جانب إدارة الديون العمومية والواردات المخصصة، حيث تحركت من دار السعادة يوم الخميس الموافق الثالث من شهر يناير لعام ١٢٠٠ رومية، بالسفينة (وستا) التابعة لشركة لويد، والتى كانت ذاهبة لبريد الإسكندرية.

ولأننى أخذت تذكرتى حتى مدللو نظرًا لوجود بعض المسائل التى كنت سأنظر فيها فى نظارة الديون العمومية هناك؛ فقد وصلت مدللو "فى تمام الساعة الثالثة والنصف مساءً يوم الجمعة التالى:

مدللو

من أجمل جزر البحر الأبيض، وأكثرها عمرانًا، أهلها رجال ذوو ثروة مجتهدون يشتغلون فى كل أنواع التجارة، وعلى الرغم من وجود ميناء أمام

القصبة فإنه لا يسمح بدخول وخروج السفن الكبرى، ولا يمكن دخوله إلا بواسطة المراكب الشراعية الصغيرة، ومن الأماكن التى تستحق المشاهدة - حقا - مزارع زيتون مدللو، وحدائق البرتقال والليمون، والخليج المسمى (يره)، الأبنية هناك من الأخشاب وهى على نفس طرز أبنية إستانبول، والشوارع التى فى جهة الميناء والسوق ضيقة للغاية، ولكن بعد أن توسعت المدينة مع كثرة عدد السكان منذ فترة، أصبحت الأماكن والأحياء الجديدة أكثر انتظامًا.

أيوالق

ذهبت لقصبة أيوالق بسفينة صغيرة استأجرتها لفترة، وهى مركز قائمقامية تقع عند نهاية المضيق الذى تشكله جزيرة (يونده) فى خليج أدرميد فى مواجهة مدللو.

لم أتمكن من رؤية شىء جدير بالذكر فى تلك القصبة، ولكننى شاهدت - بكل سعادة - أهلها وكلهم تجار يعيشون فى رفاهية وسعادة، قضينا الليل هناك، وفى اليوم التالى ركبنا تلك السفينة الصغيرة فى طقس سيئ للغاية، وعدنا إلى مدللو.

وسمعنا فى مدللو أن امرأة إنجليزية تدعى الأميرة (لوزينيان) اشتهرت بثروتها الطائلة اختارت الإقامة فى مدللو، وقد ذهبت لزيارتها ذات يوم مع آكاه أفندى متصرف اللواء، كانت تقيم فى منزلها الذى أقامته فى أجمل مناطق الجزيرة، وعلى الرغم من أن المنزل كان يبدو وكأنه منزل صيفى صغير، فإنه كان من الداخل فخمًا وبه مفروشات وزينات غاية فى الجمال، كانت الأميرة حسناء رشيقة القوام هيفاء تبدو وكأنها فى الأربعين من عمرها، ولم أستطع أن أفهم سبب اختيارها الإقامة بمفردها فى الجزيرة على الرغم من ثروتها الطائلة التى سمعنا عنها، وتذكر الأقاويل فى ذلك أن شابا من أهالى مدللو كان يعمل فى وظيفة كاتب عند الأميرة عندما كانت فى لندن، ومن شدة وصفه وثنائه على الجزيرة للأميرة شوّقها لرؤيتها كثيرًا؛ فقامت الأميرة بزيارة الجزيرة، وأعجبتها واختارت البقاء بها[1].

---

(١) توفيت الأميرة مؤخرًا. (عالى)

أكملت أعمالى، وفى منتصف الليل من يوم الخميس الموافق الرابع والعشرين من شهر كانون الثانى ركبت السفينة (بحيرة) التابعة للشركة الخديوية، وتحركت صوب إزمير.

إزمير(١)

وصلنا إزمير فى وقت السحر من يوم الجمعة التالى لخروجنا من مدللو، لم يكن لى عمل فى إزمير على حسب مهمتى، وكنت قد أتيت إلى هناك بإحدى السفن التى تبحر على خط الإسكندرون، ولأنه لم يكن هناك أى سفن حتى يوم الخميس: نزلت فى فندق (ميل) المطل على الميناء، وهناك التقيت ناشد باشا والى الولاية، وسائر موظفى الحكومة، وكان يوجد فى إزمير الكثير من الأحباء، والكثير من الأهالى الذين تعرفت عليهم قبل ذلك فى رحلاتى.

ومر الأسبوع الذى قضيته هناك فى ضيافات ودعوات كانت تتم كل ليلة.

كان قائد السفينة شابًا لطيفًا وظريفًا يدعى (إيقاس)، ولم يكن فى السفينة من المسافرين ـ غيرى ـ سوى تاجر ألمانى يدعى (سيمون هنجل) وشخص باسم (روط) من مفتشى بنك (قره دى ليون).

وفى تمام الساعة الثانية من مساء اليوم التالى وصلنا إلى جزيرة رودس، وبقينا بها ساعتين، وعندما تحركنا بدأ الطقس يسوء، حيث استمرت العاصفة حتى يوم الاثنين الرابع من شباط، وصلنا إلى مرسين بعد الآذان فى ذلك اليوم، وتوقفت السفينة أربعا وعشرين ساعة هناك، وفى اليوم التالى الموافق الثلاثاء نزلت إلى مرسين وتجولت فيها.

مرسين(٢)

تعد مرسين بمثابة المخرج الرئيسى لولاية آطنة، وفى ذلك الوقت كان العمال يباشرون عملهم فى إنشاء خط السكك الحديدية الموجود بين آطنة ومرسين

---

(١) هى ثالث أكبر مدينة وثالث أكبر موانئ تركيا تسمى أيضًا بلؤلؤة إيجه لوقوعها على الشاطئ الشرقى لبحر إيجه، وكانت تدعى قديمًا باليونانى سميرنا وهى عاصمة محافظة إزمير. (المترجم)

(٢) محافظة مرسين هى إحدى محافظات تركيا عاصمتها مدينة مرسين تبلغ مساحتها ١٥٫٧٣٧ كيلومترًا تقع جنوب تركيا. (المترجم)

حاليًا، ولأن مياه مرسين ضحلة وليست بها موانئ؛ فإن السفن ترسو بعيدًا جدا عن المدينة، وفى تمام الساعة الخامسة مساء يوم الأربعاء تحركنا من مرسين، وفى صباح اليوم التالى وصلنا إلى (الإسكندرون).

الإسكندرون[1]

كان المسيو هنجل رفيقنا فى السفينة سيذهب إلى حلب؛ فنزلنا إلى البر معًا، ولكننا ضيعنا نصف اليوم فى مشكلة شراء الدواب من الإسكندرون، فاضطررنا للمبيت فى الإسكندرون فى تلك الليلة، ورأينا أن خروجنا من هناك فى وقت السحر فى اليوم التالى مناسب، ولأن السفينة كانت ستنتظر فى الميناء أربعًا وعشرين ساعة أيضًا؛ فقد نزل رفيقنا الآخر فى السفينة مسيو روط الذى كان متجهًا إلى مصر، إلى البر معنا، بدلاً من البقاء فى السفينة بمفرده، وقام مسيو (لوزينكر) وكيل قنصل ألمانيا، والذى كان شريكًا لمسيو هنجل، بدعوتنا جميعًا لطعام الغداء، وفى مكان مثل الإسكندرون لا يوجد فيه فندق أو حانوت بقالة منتظم؛ فقد قبلنا دعوة المسيو لوزينكر بكل سرور.

وميناء الإسكندرون ميناء طبيعى، مهم وضخم، وعلى الرغم من أن الإسكندرون مركز القائمقامية فإنه بمثابة القصبة الصغيرة؛ نظرًا لعدم إمكانية التوسع فيه بسبب وجود المستنقعات بجواره؛ مما أدى إلى سوء طقسه، ومع هذا فهو يحتل مكانة تجارية مهمة؛ نظرًا لأنه مخرج للعديد من الولايات.

وبعد تناول طعام الغداء الذى أكرمنا به المسيو لوزينكر خرجت إلى المدينة مع مسيو روط للتجول بها، وفى مكان مستو على ساحل البحر شاهدنا مجموعة من الإبل كانت تستريح بعد أن تم إنزال ما عليها من أغراض وأحمال، فسألت مسيو روط.. هل ركبت جملا قبل ذلك؟ فقال:"لا، وأتمنى ذلك، هلا استأذنت صاحب الإبل فأمتطى واحدًا منها»، ولأنه لم يكن يعرف اللغة التركية فقد ترجمت له ما

---

(١) لواء الإسكندرون: مقاطعة سورية تمَّ ضمها إلى تركيا فى ٢٩ تشرين الثانى ١٩٣٩م، إلا أن سوريا لم تعترف بذلك، ولا تزال تعتبره جزءًا من أراضيها وتظهره كذلك على خرائطها. (المترجم)

يريده، ووافق الجمّال التركمانى، وركب مسيو روط على أحد الإبل الباركة على الأرض، كان مسيو روط قصيرًا للغاية ويرتدى قبعة حلزونية طويلة على رأسه، وكان هناك تضاد عجيب بين ركوب الإبل وهذا الأوروبى الذى يرتدى هذا الزى فضحكت على هذا المنظر، بينما كنت أنظر إليه وهو راكب على الجمل إذا بقبعة المسيو تميل فى ناحية وهو فى الناحية الأخرى عندما نهض الجمل، ولعل هذا لأنه لم يمسك بالحبل الموجود أمامه، وبعد أن تعلم من الجمّال ما الذى يفعله أثناء ركوبه حتى لا يقع امتطى جملاً آخر، وتجوَّل به الجمّال قليلاً وهو ممسك بزمام الجمل.

ولأنه لم يكن بالمدينة شىء آخر يمكن رؤيته؛ عدنا للسفينة بناء على رغبة مسيو روط، وتناولنا معًا طعام العشاء، ومساءً ودَّعته وودعت القبطان وعدت إلى الإسكندرون مرة أخرى، وأقمت تلك الليلة فى إدارة الديون العمومية.

وفى وقت السحر يوم الخميس السابع من شهر شباط تحركت من الإسكندرون مع مسيو هنجل راكبين الخيول، ووصلنا (بيلان) عند الظهيرة، وبعد أن تناولنا هناك طعام الإفطار تابعنا مسيرنا حتى وصلنا إلى منطقة تسمى (قِريق خان)، وذلك قرب المساء، ونزلنا ضيوفًا فى ساحة انتظار شخص يدعى مارقويج، كان مهندس الطريق، فقد كان الطريق المعبد بين حلب والإسكندرون لا يزال فى مرحلة التعبيد، ولأن الإسكندرون قد انتهت هنا فقد استرحنا كثيرًا.

وفى صباح يوم الجمعة الثامن من شهر شباط تحركنا من قريق خان ومررنا بالوادى العميق، ولأن الطريق من هذا المكان لم يكن معبدًا فقد أخذنا سائقو العربات من الطرق الوعرة، وعبرنا ـ بمشقة بالغة ـ الوادى العميق الذى يتكون القسم الأعظم منه من أحراش ومستنقعات، ثم سرنا بعد ذلك فى أماكن صخرية، وعبرنا من هناك أيضًا بمشقة بالغة، وفى تمام الساعة الثانية مساء نزلنا فى أحد المنازل بقرية (ترمانين)، وفى صباح اليوم التالى الجمعة الموافق التاسع من شباط، تحركنا من ترمانين ووصلنا حلب بعد ست ساعات.

حلب

وعندما افترقت عن مسيو هنجل رفيقى فى الطريق نزلت فى منزل خالٍ أُعد لى، وذهبت للحمام لأضع عنى مشقة وتعب السفر، كان مبنى الحمام تحت الأرض وكأنه مخزن، أما قبابه فكانت بمحاذاة سطح الأرض وعندما سألت عن سبب ذلك قالوا: «إن الغابات فى حلب قليلة للغاية والحطب نادر، وبالتالى فإنه يتم جمع الحطب الموجود فى المدينة ويحرقونه فى المكان المخصص لتدفئة الحمامات، ولأن تلك الأحطاب لا تجعل الحمامات دافئة بالدرجة المطلوبة؛ فكان ضروريًا بناؤها تحت الأرض».

وفى اليوم التالى التقيت جميل باشا حاكم الولاية، وقد دعانى الوالى المذكور عدة مرات لزيارته وتناول الطعام معه فى منزله، ومن المعلوم أن مدينة حلب هى مركز الولاية، وهى مدينة ضخمة بها ما يزيد عن مائة وعشرين ألف نسمة، ولأن العشائر العربية القاطنة فى الصحراء تغدو وتفد بكثرة إلى حلب لشراء وإدراك احتياجاتها فإن المدينة أصبحت بمثابة المدينة العربية الكبرى، ويجرى نهر (قويق) من بين أراضيها، ومنازلها منتظمة مبنية بالأحجار.

ولأنه لم يكن فى شوارعها الضيقة أرصفة حتى وقت قريب؛ قام الوالى المذكور جميل باشا ببناء الأرصفة بشوارعها، أما سوقها فهو آهل وكبير إلى حد ما وبه قبوات مبنية بالحجارة، وبالرغم من أن السور الذى يحيط بالمدينة تهدم؛ فإنه توجد قلعة داخلية مبنية على هضبة مرتفعة للغاية بوسط المدينة، وأول ما يرى من مدينة حلب من بعيد: المئذنة المرتفعة ذات الأربع زوايا، الموجودة بالجامع الشريف الذى بنى فى عهد الأمويين فى أرض تلك القلعة، ويوجد بمدينة حلب الكثير من الجوامع الشهيرة وقبور الأنبياء العظام والأولياء الكرام والحكام السالفين، ويتحدث أهالى حلب اللغة العربية لغتهم الأم إلى جانب اللغة التركية، وبحلب الأقمشة الجيدة والحلوى الفاخرة، كما يوجد بها الكثير من أهل الثروة والتجار المعتبرين.

جَبُول

وفى يوم الجمعة الموافق الخامس عشر من شهر شباط، امتطينا الدواب قاصدين مملحة (جبول) الواقعة على مسافة خمس أو ست ساعات فى الصحراء، وجبول هذه قرية عربية، بقينا بها يومين، وبعد معاينة المملحة عدنا إلى حلب.

لقد كانت هذه الجهة من حلب آهلة ومزروعة كلها، فلم تكن حقول العرب عبارة عن حقول محدودة ومركبة من قطع صغيرة، فهى تبدو وكأنها حقل مزروع على مرمى البصر، والخطوط الفاصلة بين تلك الحقول المترامية لمسافة خمس أو ست ساعات مستقيمة للغاية، حقيقة. إن عدم وجود انحناء فى هذه الخطوط الطويلة للغاية أمر يدعو للدهشة والتعجب.

وبعد أن اشتريت الخيمة التى أحتاج إليها وبعض مستلزمات السفر، تحركت من حلب صباح يوم الخميس الموافق الحادى والعشرين من شهر شباط.

وكان فى رفقتى خادم واثنان من جنود الضبطية، وعند المساء وصلنا لقرية (كل جبرين) الواقعة على طريق كليس، فنصبت الخيمة، وبعد قضاء الليل هناك، واصلنا مسيرنا حتى وصلنا كليس ظهر يوم الجمعة التالى.

كِلِيس

تتبع حلب وهى مركز قائمقامية، تبعد عن مركز الولاية عشر ساعات، معظم أهلها البالغ عددهم عشرين ألف نسمة تقريبًا أهل إسلام، وبها أقليات من البروتستانت والروم والأرمن واليهود، ويتحدث كل من فى كليس اللغة التركية، كانت غرف المنزل الذى نزلت فيه مترية بدرجة كبيرة؛ لدرجة أننى لم أستطع أن أفرش أغراضى إلا بعد ساعتين من التنظيف، حتى إن بعض المارة كانوا يكتبون على التراب الموجود على زجاج النوافذ، من تلك الكتابات التى كانت مكتوبة بيت شعر ليس له معنى وتحته تاريخ ١٢٩٤هـ.

تجولّت فى القصبة، وعلى الرغم من موقعها الجميل؛ فإنه لا يوجد بها شيء يستحق الذكر، وفى الصباح التالى تحركت من كليس باكرًا، ووصلت عينتاب بعد اثنتى عشرة ساعة.

عَينْتاب

عينتاب قصبة أكبر قليلاً من كليس، وتبعد عن حلب مسافة أربع وعشرين ساعة، أهلها مثل أهل كليس متنوعون ويتحدثون اللغة التركية، وللأمريكان هنا مكاتب كبيرة منتظمة.

كانت الدواب التى استأجرتها من حلب قد أنهكت تمامًا، فقد سارت مسافة يومين كاملين أتعبتنا خلالها أيضًا، فقمت بتبديلها فى عينتاب، وتحركت من عينتاب ظهر يوم الأحد، وقضيت الليل فى قرية تركمانية تدعى (كفر بوستان)، وفى اليوم التالى مررت بنزيب، ووصلت بِيْرَه جيك عصرًا.

بِيْرَه جيك

تقع بيره جيك على الضفة اليسرى لنهر الفرات، وهى مركز قائمقامية تتبع سنجق أورفه وبها من السكان عشرة آلاف نسمة، وترى بيره جيك ونهر الفرات من أعلى القمة التى يتم الصعود إليها بعد المرور من نزيب.

تنحدر هذه القمة انحدارًا خفيفًا لمسافة ساعة ونصف حتى نهر الفرات، وأثناء نزولنا إلى أسفل كانت توجد أطلال مدينة بلقيس على الناحية اليسرى، وكان أهالى بيره جيك يستخرجون من تلك الأطلال قطع القاشانى الكبيرة الجميلة ويفرشونها حول المنازل، ولأن تراب بيره جيك أبيض مثل الطباشير؛ يظن القادم إليها من بعيد أنها أطلال لمكان كان يصنع فيه الجص، وعندما وصلنا إلى ساحل الفرات أتت من بيره جيك ستة قوارب كبيرة وعجيبة الشكل، أخذت قافلتنا التى كانت عبارة عن أربعة مسافرين وحمّال أمتعة وست دواب، نقلتنا تلك القوارب إلى الضفة الأخرى من النهر، وكانت إدارة الديون العمومية أحد الأبنية المرتفعة المطلة على نهر الفرات، ونزلت بها، وتجولت بالمدينة.

تحركنا من بيره جيك صبيحة يوم الثلاثاء الموافق السادس والعشرين من شباط، وفى المساء وصلنا قرية (قانلى افشار) وفى اليوم التالى وصلنا إلى قرية (تَتْرِيش)، وفى مساء اليوم التالى الموافق الخميس وصلنا قرية (مشمش) وقضينا الليل هناك، ووصلنا سِيْورَك عصر يوم الجمعة الموافق الأول من شهر مارس لسنة ١٣٠١رومية(١) .

ولفت انتباهنا عدم وجود أية غابات أو أشجار لمسافة ثلاثة أو أربعة أيام منذ أن خرجنا من بيره جيك، وكل القرى التى رأيتها وبقيت فيها حتى وصلت سيورك كردية، ومن القرى التى نزلت بها: قرية (جُوْرنُوش) حيث نزلت فى أحد المقاهى الموجودة بها لتناول الإفطار، ورأيت فى المقهى إمام القرية يقرأ حكاية فتح خيبر، والعديد من أغوات القرية التفوا حوله يستمعون.

تحدثت مع هؤلاء الأغوات قليلاً، ومن الحكايات التى لفتت انتباهى هنا أنهم أخبرونى بأن أغا فى التسعين من عمره، له ثلاث زوجات، تزوج هذا الأسبوع بفتاة فى الثامنة عشرة من عمرها.

سِيْورَكْ

سيورك قصبة متوسطة الحال، وهى مركز قائمقامية تابعة لديار بكر، أهلها أكراد ولكنهم متحضرون، وعلى الرغم من أنهم يتحدثون اللغة التركية فإننى سمعت بعض التعبيرات العجيبة الخاصة بهم.

وأفراد أسرة سيورك يشتغلون فى أعمال الحكومة، وتعليمهم وتربيتهم يتناسب مع حال بلدتهم، ولوجود خيول عربية أصيلة فى تلك المناطق؛ يوجد من بين أهالى سيروك من يجيد ركوب الخيل.

وفى اليوم التالى تحركنا من سِيْورَك وفى المساء نزلنا فى منزل شخص يدعى قره جه أغا، بقرية قره باغجه الموجودة على سفح جبل قره جه المشهور بشدة

---

(١) هى الأشهر السريانية ويسميها البعض الأشهر المسيحية وهى (كانون الثانى ـ شباط ـ آذار ـ نيسان ـ حزيران ـ تموز ـ آب ـ أيلول ـ تشرين الأول- تشرين الثانى ـ كانون الأول). (المترجم)

برودته فى الشتاء، وهو من الأماكن كثيرة الثلوج فى فصل الشتاء أيضًا، ومنزل الأغا الذى نزلنا به عبارة عن غرف مظلمة بلا نوافذ، وقد ذبح الأغا لنا شاة إكرامًا لنا، وعندما أردت أن أعطى خدمه الأموال فى اليوم التالى إكرامًا منى لخدمتهم لنا قال لى الأغا: "لقد أمرت خدمى هؤلاء بألا يأخذوا مقابلا لخدمتهم، ولكن إذا ما حللت يومًا ما بإستانبول فلتكرمنى كما أكرمتك"، وقد تركت سيورك وجبل قره طاغ، وفى وقت العصر وصلت إلى ديار بكر واخترت الإقامة فى إدارة الديون العمومية.

ديار بكر

مدينة ديار بكر لها اسم آخر هو (آمد)، تقع على الضفة اليمنى لنهر دجلة، وهى مدينة كبيرة بها ما يقرب من عشرين ألف نسمة، وقلعة داخلية حوائطها عالية للغاية، وعلى الرغم من أن أحوالها الجغرافية وأحداثها التاريخية معلومة وواردة بالكتب؛ فإننى سأذكر بعضًا منها فى هذا السجل اليومى. ينبع نهر دجلة من أمام مدينة ديار بكر، ولأن أرض المدينة مرتفعة؛ فإن المنحدر من القلعة وحتى نهر دجلة، توجد به غابات يطلق عليها الحدائق السفلية، والقسم الأعظم من الأهالى أهل إسلام، والقليل أرمن وكلدانيون(١) وكلهم يتحدثون اللغة التركية والكردية، وبعضهم يتحدث اللغة العربية مع اللغتين السابقتين، والمنازل بالمدينة أبنية منتظمة بنيت من الحجر الأسود، وينام الأهالى على الأسطح فى الصيف نظرًا لشدة الحرارة، وأسطح المنازل مفروشة بالتراب أو بالحجارة المستوية، ويوجد من بين الأهالى والأسرة الحاكمة الكثير من الأشخاص الأدباء، ومن تعلموا تعليما جديا، ومنهم سعيد باشا الذى اشتهر بقوة قلمه، وله العديد من الآثار الأدبية والتاريخية، ومع هذا - وبكل أسف - اشتهر أهالى ديار بكر بالتزوير والتدليس، والغريب أنه يوجد كلمة مشهورة بينهم تقول: "منازل وكلاب وقلوب أهالى ديار بكر سوداء". فى الحقيقة إن كل الكلاب الموجودة بالطرقات فى ديار

---

(١) الكلدان أو كلدو: قوم من الأقوام السامية القديمة الذين يتحدثون اللغة الآرامية وسكنوا بلاد الرافدين وما زالوا يسكنون فيها. (المترجم)

بكر سوداء، ومن الأمور الغريبة فى ديار بكر أيضًا أن الأوقية عندهم خمسمائة درهم، وعلى الرغم من وجود الأوقية التى تساوى أربعمائة درهم؛ فإن معظم الأهالى يستعملون هذه الأوقية التى تساوى خمسمائة ويطلقون عليها الحجر الأسود، والمدينة مشهورة بعقاربها وحشرة (أم أربعة وأربعين)، وبطيخها الكبير اللذيذ الذى يزن خمسًا وأربعين أوقية للواحدة، وقد نزلت هذه الحشرة بحكمة الله تعالى من حلب إلى أورفة وديار بكر ومنها إلى نهر دجلة، ومنها إلى الموصل وبغداد والبصرة وكأنها خاصة بتلك المناطق، ولا توجد هذه الحشرة فى بتليس وسعرد، والأغرب من ذلك أنها توجد فى بعض القرى الواقعة على ضفتى نهر دجلة ولا توجد فى بعضها، وعلى الرغم من إجراء كل أنواع التجارب على يد المسافرين الأجانب والعرب فى هذا الشأن؛ فإنه لم يفهم حتى سبب ظهور تلك الحشرة، وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل أثناء حديثنا عن رحلة بغداد.

أما بخصوص تشكيل الولاية فى ديار بكر، فإن إسماعيل حقى باشا رأى فى بادئ الأمر أنه من غير المناسب توسعة المدينة لتكون بأكملها داخل القلعة، وبدأ فى توسعة المدينة ببناء المحلات خارج القلعة، فقد أنشأ مقرًا للحكومة ومعسكرًا على مسافة خمس وأربعين دقيقة خارج الباب المعروف بباب الروم، إلا أن أصحاب المصالح تقدموا بشكوى بأنهم يجدون مشقة فى الذهاب والإياب إلى مقر الحكومة الواقع خارج المدينة، هذا فضلا عن أن الأهالى لم يكونوا يرغبون فى البقاء خارج القلعة، وبناء على هذا تم نقل مقر الحكومة إلى داخل المدينة، ومن وقتها، أصبح مقر الحكومة الجديد والمعسكر اللذين أُنشئا خارج المدينة خاليين وأشرفا على الخراب(١).

كما أن حديقة المدينة، التى أنشئت فى ذلك الوقت فى مكان مرتفع نسبيا يطل على نهر دجلة خارج باب الروم، أصبحت فى حالٍ خربة فى الوقت الحالى؛ ومع ذلك يذهب الأهالى لتلك النواحى، وخاصة إلى قرية (قطر بول) الواقعة

---

(١) تم ترميم تلك الأبنية حاليًا بإرادة سنية، واتخذت معسكرًا ومخزنًا للجنود السلطانية. (عالى)

على نهر دجلة أمام تلك الحديقة المذكورة لزيارتها؛ لأنها مكان غاية فى اللطف والجمال، كما يصعدون للقصور الواقعة خارج باب ماردين للتنزه بها.

ومن يعمل فى الشئون الحكومية من أشراف ديار بكر والأسرة الحاكمة يلبسون زيًا مثل أهالى إستانبول، أما التجار والحرفيون وسائر الأهالى فيرتدون الجبة والعباءة، ويلف المسلمون على رءوسهم العمامة الصيفية، أما النصارى فيضعون منديلا أسود أما الشباب النصارى الذين تفرنجوا فيرتدون الجاكيت بدلاً من الجبة والعباءة، وهذه الموضة التى ابتكروها تبدو غريبة للعين.

وفى اليوم التالى لوصولى لديار بكر التقيت سامح باشا والى ديار بكر، وقد دعانى الوالى المذكور لزيارته مرة أخرى، وتناولت معه الطعام مرة أو مرتين، ومن الشخصيات التى قابلتها فى ديار بكر أثناء مدة إقامتى التى استمرت عشرة أيام: رئيس البلدية فتاح أفندى، ومن الأسرة الحاكمة: فيض أفندى، وسليمان أفندى، وخيالى أفندى، وحاجى بكر أفندى، ومفتش التلغراف غاليار أفندى.

ورغم أننا عزمنا على الذهاب من ديار بكر إلى سعرد برًا، فإننا تحركنا من ديار بكر يوم الخميس الموافق الرابع عشر من شهر مارس راكبين القارب المسمى (كلك)؛ لأنهم أخبرونا بأن الذهاب عبر النهر إلى قرية (عوتة) التى تعد ميناء سعرد سيكون أنسب وأفضل، والكلك نوع من القوارب المصنوعة من أفرع الأشجار الجافة، وسنذكرها بالتفصيل أثناء حديثنا عن رحلة بغداد.

وفى تمام الساعة الثانية صباح يوم الأحد الموافق السابع عشر من شهر مارس اقتربنا من قرية (عوتة)، وأتى لاستقبالنا بعض الموظفين ومفتش الديون العمومية بسعرد، وقد امتطينا الدواب التى أحضروها لنا وتحركنا من عوتة فى تمام الساعة الثالثة والنصف، وبعد أن سرنا بمحاذاة الجدول المائى (بهتان) فترة، صعدنا مرتفعًا وعرًا للغاية، ووصلنا سعرد بعد أربع ساعات، واستقبلنا خارج المدينة بعض موظفى الحكومة والعديد من الأشخاص، ومن الغرائب أنه كان يوجد من بين مستقبلينا عشرة أو خمسة عشر شحاذًا تجمعوا فى مكان وأطلقوا جميعًا كلمة «إلهى» فى صوت واحد وكأنهم محرمون، وضيفنا الأخوة

(شماس) من التجار المولين فى سعرد فى منزلهم، وبعد أن بقيت يومين عندهم استأجرت منزلاً وأقمت فيه؛ وكان والى بتليس فكرى باشا موجودًا فى سعرد فى تلك الأوقات، وقد قمت بزيارته وزيارة سليمان باشا متصرف اللواء.

سعـرد(1)

سعرد مركز لإحدى المتصرفيات متوسطة الحال، وعلى الرغم من أن أهلها بالكامل من الأكراد؛ فإنهم يتحدثون اللغة العربية، والكثير منهم لا يعرف اللغة التركية، يتمثل زيهم فى البنطال المصنوع من القماش الرقيق مختلف الألوان، والعباءة السوداء ذات الأكمام الطويلة، والعمامة الكردية، ويعلقون الخنجر على خصورهم، ومنازلهم من الآجر، وفصل الصيف فى سعرد أشد حرارة من ديار بكر، ولأن الأهالى ينامون فوق الأسطح؛ فقد فُرشت تلك الأسطح بالتراب، ولأن أبواب الغرف والنوافذ صغيرة للغاية؛ يضطر الشخص الداخل للغرفة من هذا الباب الصغير للانحناء، وعلى الرغم من أن بعض المنازل والأبنية التى بنيت حديثًا بنيت على الطراز والشكل الحديث؛ فإن معظم البيوت هناك على الطراز القديم، أُنشئت وكأنها قلاع، وبالمدينة أربعة أو خمسة مساجد، إلا أنها أبنية عادية بنيت من الطوب الآجر، ومآذنها من الغرائب فكلها تميل وتنحنى ناحية القبلة.

وبقدر قسوة المدينة من داخلها بقدر لطافة الطقس خارجها، فالمدينة محاطة من جهة منها بواد فسيح محاط بالجبال من جميع النواحى، ومن جهة أخرى ترى العديد من البساتين وبعدها مراعى ووديان منطقة بهتان التى تجتذب النظر إليها.

كان المنزل الذى استأجرته للإقامة فيه مبنيا على الطراز القديم، وعلى الرغم من أننى استطعت أن أقيم فيه خمسة عشر يومًا؛ فإننى بدأت أشعر بالضيق من

---

(1) محافظة سيرت (بالعربية سعرد) وهى إحدى محافظات تركيا عاصمتها مدينة سيرت تبلغ مساحتها ٥,٤٦٥ كيلومترات ويبلغ عدد سكانها ٢٦٣,٦٧٦ نسمة طبقًا لإحصاء ٢٠٠٥ وتقع جنوب شرق تركيا. (المترجم)

انقطاع الهواء، وخرجت لتأسيس خيمة فى مكان جميل مرتفع يطلقون عليه مكان الغلة بالقرب من (عين الصليب)، ومياه عين الصليب المذكورة هى أصلح وأجود مياه للشرب فى المدينة، وتوجد فى سعرد عقارب تهلك الإنسان مثل الموجودة فى ديار بكر، ولكنها لا تظهر قبل شهر يونيو، ولأن هذا الوقت كان بعيداً عن وقت ظهورها فقد أقمت تحت الخيمة فترة وأنا آمن.

ومن الأمور الغريبة التى رأيتها فى سعرد: تلك المئذنة التى تعرف بمئذنة الشحاذين، حيث يصعد إليها الفقراء الذين يريدون ألبسة أو أموالاً أو رأساً من البقر وخلافه، ويظلون طوال الليل يدعون ويتضرعون: يا ربى اللهم أعطنى كذا.

ومن الأشياء العجيبة أيضاً التى رأيتها فى سعرد: طرق العمال بالمعاول أثناء إنشائهم لأحد المنازل هناك، فقد كان يوجد خمسة أو ستة من العمال يمسك كل واحد منهم فى يده بمطرقة طول ذراعها ذراعان تقريباً، ويضربون بالتوالى؛ حيث يقوم الأول والثالث والخامس بالطرق، ثم يطرق الثانى والرابع والسادس بعدهم وهكذا، ويغنى هؤلاء العمال أثناء عملهم، إلا أن أصواتهم ونغماتهم ليست مستحسنة.

وتؤجر الدواب كالأبقار والثيران فى تلك النواحى للنقل، ولكنهم لا يضعون على ظهور تلك الدواب سروجاً، ويضعون أمتعتهم وأغراضهم فى جوال له فتحتان يضعونه على ظهور الدواب.

وتوجد فى سعرد الكثير من الملاحات، ولأن تلك الملاحات عبارة عن آبار؛ فإنه عندما يحين موسم الرى يسحبون المياه من تلك الآبار بالدلاء ويصبونها فى الأحواض المنتشرة فى حقول البامية أو الباذنجان، وعندما يحل الصيف تتجمد المياه وتصبح ملحاً.

ولرؤية تلك الأشياء؛ عزمنا على التوجه لمدينة (كفره) مركز قائمقامية (شروان) الملحقة بسعرد، كما عزمنا التوجه إلى (خطو) مركز قائمقامية (صاسون) وإلى قرى (ملفان) و(كوركور) و(حوزيار) و(صلحه) و(زرقى)، وبعد

التجول مقدار خمسة أو عشرة أيام وصلنا إلى (غرزان)، وبعد أن تجولنا بها أيضًا عدنا إلى سعرد يوم الخميس الموافق الخامس والعشرين من شهر أبريل، ويعجز اللسان عن وصف لطافة الجو فى تلك الأماكن التى تجولت فيها، فكما أن أشجارها وأنهارها كثيرة وأرضها منبتة وطقسها لطيف، فإن أهلها أيضًا رجال شجعان، غيورون مأكلهم ومشربهم كباب الضأن والأيران.

وتقوم النساء الكرديات بمساعدة أزواجهن فى الحقل بعد أن يتممن عملهن فى المنزل، بل إنهن يقمن بعمل أكثر من الرجال، ولا يوجد عند تلك النساء اهتمام بمسألة الحجاب، ولكن الحفاظ على الشرف أمر من الأهمية بمكان عندهن، وإذا ما اعتدى شاب على فتاة وهتك عرضها فإنهم يقتلون الشاب والفتاة معًا، وفى حالة ما إذا هرب الشاب بالفتاة فإنهم يتزوجون فى قرية أخرى على الفور.

ويقع قبر إبراهيم حقى صاحب كتاب معرفة نامه، وقبر شيخه الشيخ إسماعيل، والشيخ ممدوح والشيخ مجاهد، وهم من المشايخ الكرام، فى قرية (تللو) بشرق سعرد، وقد ذهبت إلى هناك وزرت تلك القبور، وأكرمنى الشيخ حمزة أفندى من مشايخ الطريقة القادرية وخادم قبر إبراهيم حقى إكرامًا كثيرًا، ويوجد ضريح أويس القرنى أيضًا فى قرية حوزيار.

وللأكراد شغف كبير بزيارة القبور، حتى أن لكل قبر موسمًا للزيارة يستمر ثلاثة أيام أو أسبوعًا فى السنة، ويخرج الرجال فى الصباح، أما النساء فيخرجن فى وقت العصر لزيارة تلك القبور، ويجتمعون بجوار القبر ويذكرون ويهللون مثل المتصوفة.

وقد التقينا فى قرية زوق التابعة لغرزان بشخص يدعى فتاح باشا ينتمى لأسرة من أكثر الأسر ذات النفوذ والمكانة فى سعرد، وعندما كنت أتجول فى ملاحاته أرسل معى مخدومه سيف الدين بك ورافقنى حتى قرية ملفان، ودعانى لبيت الباشا فأجبته، ولأننى قد سمعت أنه تعرض لأزمة مالية فى عقاراته

وإيراداته؛ قررت أن أترك الرجال والدواب المرافقين لى فى مكان ما وأذهب إليه بمفردى، ولكنه رفض هذا قائلا: إن هذا التصرف يتنافى مع وضع أسرته الحاكمة.

ودعا كل من فى قافلتنا إلى منزله، وقد تأسفت وحزنت أكثر عندما علمت أنه اقترض ليطعم الدواب التى معنا.

وعلى الرغم من أن فتاح باشا هذا كان فى الثمانين من عمره؛ فإن هذا لم يؤثر على ذكائه وقوته البدنية. لقد كان الحديث معه شيقًا للغاية؛ حيث كان فتاح باشا يتمتع بروح مرحة.

ونزلنا ضيوفًا على شخص يدعى الحاج حمو أغا بقرية (جومانى) التابعة لغرزان، كان حمو أغا هذا من أغوات الأكراد الأثرياء، وله ابن يدعى حسن أغا، كان شابًا نشطًا يدير أموال أبيه بشكل جيد، ونظرًا لكثرة أعمالى فى سعرد؛ فقد أقمت بها ما يزيد على شهرين ونصف، ولأن يوم ولادة حضرة السلطان تصادف فى أحد الأيام التى كنا فيها فى سعرد؛ فقد زينت خيامنا بشكل لم ير له مثيل فى سعرد، واحتفلنا بيوم ميلاد السلطان بطلقات الفشنك التى جلبناها من ديار بكر.

وفى يوم الأحد الموافق السادس والعشرين من شهر مايو تحركنا من سعرد قاصدين بتليس، وأقمنا ليلاً فى مكان يُسمى كجيد الممر. لقد كان المكان بين سعرد وبتليس مكانًا جبليا به الغابات الكثيرة والأودية اللطيفة، وفى اليوم التالى بعد الظهر وصلنا إلى مكان يسمى (دليكلى طاش) الذى يبعد عن بتليس بمقدار ساعة ونصف، والتقيت هناك بطاهر بك كاتب الولاية وصالح أفندى مفتش العدلية، وكان من أصدقائى القدامى، وبعدها بقليل وجدنا مخدوم فكرى باشا والى الولاية وبعض أركان وموظفى الولاية، الذين خرجوا لاستقبالنا فى مكان قريب من الولاية، وبعد أن استرحنا قليلاً فى الخيمة التى أعدت لنا خارج المدينة بقليل دخلنا بتليس فى تمام الساعة الثامنة والنصف، وتوجهنا مباشرة إلى مقر

الوالى وتقابلنا معه، وأقمنا فى الخيام التى نصبت لنا خصيصًا على هضبة مرتفعة قليلاً بجوار المنزل الذى يقيم فيه صالح أفندى.

بتليس(١)

مدينة أنشئت فى مكان يجتمع فيه العديد من الهضاب والأودية، يبلغ عدد سكانها أربعين ألف نسمة تقريبًا، وتجرى المياه من كل مكان بها نظرًا لوجود الأودية، منازلها متفرقة بين الحدائق والأشجار، وبخلاف هذا المنظر البديع للمنازل الواقعة بين الأشجار والحدائق، توجد الطرق والغابات التى تتجه كلها صوب المنابع والمجارى المائية للخمسة أودية الواقعة خارج المدينة، ومن الأماكن الجديرة بالزيارة فى بتليس: آلتون غربال، وحديقة سفر بك، وعويق، وخمسى، وعلى الرغم من أن بناء المنازل كان من الأحجار المستوية التى تشبه قالب الصابون؛ فإنها محرومة من الفنون المعمارية، ولأن فصل الشتاء هنا يستمر طويلاً فقد بنيت أسطح المنازل بالتراب بدلاً من القرميد، كما أن أسطح الغرف مغطاة بالخشب، ولأن أسطح المنازل مفروشة بالتراب فى بتليس وسعرد وديار بكر؛ فإن هذا التراب يتشرب المياه والثلوج، التى تهطل فى فصل الشتاء، ثم تذوب مع بداية فصل الربيع، لذا يقوم الأهالى بتسوية هذا التراب بحجر على شكل حلزونى يسمى (لوغ)، لذا يوجد حجر اللوغ على كل منزل، ويقوم بهذا العمل شخص يسمى (اللوغجى) ويتعيش منه، وبالقرب من المدينة يوجد جبل على شكل الخيمة، خالٍ من الأشجار والنباتات، وقد كان على ذروة هذا الجبل برج أقامه الخانات، الذين حكموا بتليس فى العصور السابقة، لا تزال أطلال هذا البرج باقية حتى اليوم، كانوا يضعون فيه حارسًا يسمونه (ديدبان)(٢)، مهمته مراقبة تحركات جنود الأعداء، وبالمدينة أيضًا جامع قديم باقٍ من عهد الخانات، وقلعة باقية من العهود القديمة.

---

(١) مدينة تقع شرق تركيا. (المترجم)

(٢) مركبة من ديد أو ديدن بمعنى الرؤية أو المشاهدة، وبان وهى لاحقة يكثر استعمالها فى الفارسية تدل على الحراسة والمراقبة، وهذه الكلمة شائع استعمالها فى المجال العسكرى. (المترجم)

والقسم الذى يمر من الطريق الذى شرع فى إنشائه صوب دليكلى طاش فى بتليس يسير بمحاذاة وادى (سير) عند سفح هضبة ترتفع بمقدار عشرين أو ثلاثين مترًا، وهذه الهضبة واحدة من الهضاب الواقعة داخل المدينة، وقد بنيت عليها محلة، ولتوسيع الطريق الذى يمر من هذه الهضبة؛ تم حفر جزء منها ينحدر من أعلى لأسفل.

وأثناء حفر هذا الطريق تم العثور على طبقتين من القبور على جانبى الطريق، إحدى طبقات تلك القبور كانت على مسافة عشرة أمتار تحت سطح الأرض، والثانية كانت على مسافة خمسة أو ستة أمتار منها، وأغلب الظن أن هذا المكان كان جبانة للمدينة فى العصور السالفة، وكانت كل طبقة منها تمثل عصرًا من العصور؛ حيث تراكمت فوق بعضها البعض بفعل التقلبات الأرضية المختلفة، واللافت للانتباه هنا وجود قبور العصرين فى مكان واحد.

وقد ذهبت لزيارة شيخ من الصالحين فى بتليس يدعى الشيخ محمد أفندى، حقيقة: لم أر تعظيمًا للمشايخ مثلما رأيت الأكراد يعظمون مشايخهم، فقد كان القادمون لزيارة الشيخ يصعدون السلم بكل خشوع وخضوع وهم ينظرون إلى الأرض، وعندما يدخلون غرفة الشيخ ينكبون على الأرض ويسيرون إلى الشيخ ويقبلون يديه ورجليه، ثم يقفون بكل احترام أمامه.

وكان صالح أفندى مفتش العدلية سيخرج عبر طريق موش بعد وصولنا إلى بتليس بأسبوع لوجود بعض المهام المحالة إليه من التفتيش العدلى بولايتى خربوط وديار بكر، وقبل يوم من تحركه تركنا الخيام التى كنا ننزل بها، وانتقلنا إلى منزل يوسف أغا بن على أغا زاده الذى كان من أشراف بتليس، وفى اليوم التالى، أى الثالث من يونيو الموافق الاثنين الثانى من شهر رمضان عام ١٣٠٢هـ، خرجنا للطريق مع طاهر بك كاتب الولاية لتوديع صالح أفندى ورؤية نواحى موش، ولأن الرياح كانت غير مواتية فى ذلك اليوم؛ لم نتمكن من الذهاب بعيدًا عن بتليس، واضطررنا للإقامة فى قرية (قاخرى) الواقعة على مسافة ساعة أو ساعتين من بتليس؛ نظرًا لأن الهواء بها ساكن، ثم ذهبنا بعد ذلك إلى مكان يسمى باش خان، فنصبنا الخيام وقضينا ليلتنا هناك.

وتحركنا من باش خان مع وقت السحر، وسرنا طريقًا يبلغ عشر ساعات فقد كان الهواء ساكنًا، ومع وقت الآذان وصلنا لقرية أرمينية تسمى (تلكوانق) واقعة على مسافة ساعة إلا ربع من موش، وقد أسست خيمة لى فى تلك القرية ونمت بها. كان طاهر بك المرافق لى هو ابن صالح باشا متصرف موش، ولم يبق بالقرية مثلى ، بل اعتزم الذهاب إلى المدينة.

أما أنا فقد ذهبت لموش فى اليوم التالى الموافق الأربعاء، وبعد أن تناولت طعام الإفطار مع المتصرف الباشا عدت إلى قرية تلكوانق ونمت فى خيمتى.

مـوش

موش قصبة مهمة تطل على واد، بها ما يقرب من خمسة وعشرين ألف نسمة، منازلها على هيئة أبنية منازل إستانبول، ووادى موش جسيم وفسيح للغاية يبدأ من المضيق المسمى (راخوه) وحتى خمس عشرة ساعة طولا سيرا بالجواد، وهو مملوء وآهل بالقرى الكردية والأرمينية، ويطلق على هذا الوادى أيضًا (جقور أوه) أى الوادى المنخفض، وينبع نهر قره صو الشهير من هناك، وتوجد عدة قرى فى الوادى المواجه لقصبة موش، ولأن أهالى تلك القرى متحضرون؛ فإن زى الرجال عندهم يشبه زيَّنا جدا، كما ترتدى النساء هناك الفساتين الأوروبية.

وفى صباح يوم الخميس تحركت من (تلكوانق) مع طاهر بك للعودة إلى بتليس، وتقابلنا بالصدفة مع صالح أفندى فى قرية (خاصكوى)، ولرؤية جبل النمرود وبحيرة (وان) كان يلزم علينا السير يسار الوادى والعبور من القرى الأرمينية الكبيرة الآهلة، وعند المساء وصلنا إلى قرية (أرون)، ولم نتمكن من رؤية القرية من ظلمة الليل، وقد شاهدنا الكثير من الأضواء فى الناحية اليمنى، سقنا دوابنا إلى هذا المكان، إلا أننا سقطنا فى أحراش ومستنقعات حقول الأرز وفقدنا الطريق، وأخيرًا، تمكنا من العبور من تلك الخنادق والأحراش بصعوبة بالغة، ووصلنا إلى المكان الموجودة به الأضواء.

فى الحقيقة لم تكن هذه قرية (أرون)، وكانت الأضواء التى رأيناها ما هى إلا نيران أشعلها بعض الرجال أمام خيامهم، ولكن لم يكن يوجد أى شخصٍ قط فى

تلك الخيام، سألت الضابط المرافق لنا، فقال: "إن هؤلاء الرجال عليهم ديون أميرية كثيرة، وعندما رأونا ظنوا أننا موظفو التحصيل، ويفعلون هذا الأمر دائمًا، ولكن نساءهم هنا". ثم بدأ يبحث عن أشخاص، ووجد النساء تستتر خلف الخيام، فسألناهم عن اتجاه قرية (أرون)، فقالوا لنا مسيرة ساعة إلا ربع من هذا الطريق، وأشاروا بأيديهم على طريق لم نكن نراه أصلا من ظلمة الليل!.

لم تكن تلك الإشارة تكفى لإيجاد القرية، خاصة أننا قد سقطنا فى الأحراش وفقدنا الطريق، فأخبرناهم بضرورة قدوم أحد رجالهم معنا ليرينا القرية، فأخبرونا بأن رجالهم مع الدواب فى المرعى، ولم يقتنع الضابط الموجود معنا بهذا الكلام، وقال لهن إذًا ستأتى واحدة منكن تسير أمامنا لترينا الطريق، وبالفعل سارت أمامنا امرأة وعندئذ صاحت النسوة، فخرج الرجال الذين كانوا مستترين، واضطروا أن يرسلوا واحدًا منهم ليرينا قرية أرون، وسار معنا حتى أوصلنا للقرية، قضينا الليل هناك، وفى اليوم التالى الموافق الجمعة مررنا من قرية (بوريان) ثم صعدنا قمة جبل النمرود.

جبل النمرود(١)

توجد الكثير من الشواهد التى تدل على أن جبل النمرود كان جبلاً بركانيا قديمًا؛ فعند قمته توجد فوهة كبيرة للغاية على شكل البئر تسمى (قراتر)، وعلى مسافة ثلاثين أو أربعين مترًا أسفل تلك الفوهة توجد المياه الكثيرة، ويمكن الالتفاف حول هذه الفوهة دائريا فى عشر دقائق. نزلنا من الجبل، وعند العصر وصلنا إلى قرية أرمينية تسمى (طادوان) تقع على ضفاف بحيرة وان، نصبنا الخيام على ضفاف البحيرة وأقمنا ليلتنا هناك.

بحيرة وان

هى بحيرة كبيرة، ترى جبال وان على الشاطئ الآخر منها بين الدخان الكثيف وكأنها خيال، طلبنا السمك من القرويين الموجودين هناك، وتعجبنا عندما

---

(١) جبل النمرود يقع فى بلدة كاهاتا التابعة لمحافظة آدى يامان جنوب شرق تركيا يبلغ ارتفاعه ٢١٥٠ مترًا. (المترجم)

أخبرونا بأنه لا يوجد سمك فى تلك البحيرة، كما أنهم لا يعرفون صيد الأسماك، ولكن كان يوجد أمام القرية قاربٌ شراعى كان يرسو على القضبان الحديدية، وتعجبت عندما رأيت هذا القارب بدون مجاديف، وسألت كيف يسير هذا القارب، قالوا لى إن هذا القارب يسير بالشراع فإذا ما كانت الرياح مواتية فردنا الشراع فيسير القارب، فازددت حيرة من هذا الأمر.

كانت مياه البحيرة بها شوائب كثيرة، كما كانت كل سواحلها مملوءة بالحصى، وكان يرى من الجهة اليسرى للبحيرة قصبة الأخلاط، ولأن تلك القصبة تشتهر بطقسها اللطيف؛ فإن الأثرياء من أهالى بتليس يأتون إليها فى الصيف.

وفى تلك الليلة هبت عاصفة قوية تصاحبها أمطار غزيرة على (طادوان)، وقد انحلت كل أربطة خيامنا وسقطت الخيام على رءوسنا؛ مما أتعبنا طوال الليل، وفى اليوم التالى خرجنا من طادوان، وعند الظهر وصلنا إلى بتليس.

وعندما كنت ذاهبًا من سعرد إلى بتليس، أو من بتليس إلى موش، رأيت أطلال نزل بنيت بالحجارة فى الكثير من الأماكن على الطريق، ولأن تلك النزل لا تزال موجودة حتى اليوم؛ فإنه يمكن ترميمها والانتفاع بها، كما رأينا أطلال الكثير من الأسبلة المنتشرة بتلك النواحى، وعلمنا أنها من آثار الميرميران خسرو باشا (رحمة الله عليه).

تحركت من بتليس مساء يوم السبت الموافق العشرين من شهر يوليو، ووصلت سعرد صباح يوم الاثنين، ولأن بتليس تقع على الجبال وأرضها مرتفعة؛ فقد كان طقسها لطيفًا، أما سعرد فكانت على النقيض؛ فكان الطقس بها حارًا، ولم أتمكن من الإقامة فى الخيمة؛ فنزلت ضيفًا فى منزل أحمد نديم أفندى مدير الديون العمومية، ونمت على سطح المنزل كما هو معتاد فى تلك النواحى، وفى اليوم التالى أنهيت أعمالى فى سعرد، وتحركت إلى ديار بكر مساء، فقد كانت شدة الحرارة تمنع خروجنا نهارًا، فكنا نرتحل فى الليل ونستريح بالنهار، مررنا من قرى (سعرد طان)، (بليدر)، (سنان)، (بسمل) و(هولان)، ووصلت ديار بكر فى تمام الساعة الثانية صباح يوم السبت الموافق السابع والعشرين من شهر يوليو.

وبعد أن قضيت عشرة أيام بديار بكر تحركت برفقة مهران أفندى مفتش الديون العمومية بديار بكر يوم الاثنين الموافق الخامس من أغسطس لعام ١٣٠١ رومية، قاصداً الصحراء عبر طريق ماردين.

وكان هدفنا من تلك الرحلة استعادة ملاحة (بوارة) التى استولى عليها العربان والعشائر، وكان من المقرر أن يذهب معنا إلى ماردين مسيو فوره رئيس مهندسى الولاية وكريمته، ووكيل البابا فى تلك المناطق (منسنيور التماير). وصلنا إلى (آق بيكار) ليلاً، وفى الصباح التالى وصلنا لقرية (خانيك)، وبعد أن استرحنا حتى المساء خرجنا من (خانيك) مساءً وسرنا لمدة أربع ساعات حتى وصلنا (شيخان)، نصبنا الخيام على ضفاف مياه شيخان وقضينا ليلتنا هناك، لقد كانت درجة الحرارة مرتفعة للغاية، وعلى الرغم من أننى نصبت خيمتى على ضفاف نهر صغير وتحت ظلال شجرة كبيرة بقرية خانيك؛ فإن هذا لم يلطف من حرارة الجو، لدرجة أننى لم أكن أتمكن من التقاط أنفاسى، وفى تمام الساعة الثانية من صباح يوم الأربعاء وصلنا ماردين.

ماردين (١)

ماردين قصبة تقع على هضبة تطل على الصحراء عند نهاية الجبال التى تنتهى بالصحراء من ناحية ديار بكر، وهى مركز متصرفية بها ما يقرب من خمسة عشر ألف نسمة، والقادم إليها من ناحية ديار بكر يرى ـ بنظرة عامة ـ منظر الأودية والحدائق والبساتين جميلاً للغاية، أما القادم من جهة الصحراء فيرى منخفضًا عبارة عن أحجار وصخور تشبه الحائط. والصحراء فى قصبة ماردين مستوية، وترى من القصبة على مرمى البصر، أما جهة الصحراء من ناحية ماردين فهى عبارة عن أراضٍ مزروعة للعديد من القرى، وعلى الرغم من أن لغة أهل ماردين العربية؛ فإن معظمهم يتحدث اللغة التركية، وبخلاف العشائر

---

(١) ماردين هى محافظة فى تركيا على الحدود مع سوريا، عاصمتها ماردين الواقعة على الحد الفاصل بين الأناضول وبلاد ما بين النهرين، ومعنى كلمة ماردين الحصن ويسكن المنطقة حاليًا الأكراد والأتراك والعرب. (المترجم)

الموجودة بها، فإن كل أهالى القرى والقصبات الموجودة داخل السنجق من الأكراد.

وبعد أن استرحنا قليلاً فى منزل داود بك ابن سليمان باشا أحد أشراف ماردين، تجولنا فى المدينة قليلاً، ثم امتطينا دوابنا عندما جنَّ الليل وتحركنا صوب الصحراء، وقضينا تلك الليلة فى إحدى القرى الكردية، وفى صباح اليوم التالى استرحنا قليلاً بقرية (كيكى) ثم واصلنا سيرنا، وعند الظهر وصلنا للمكان الذى توجد به خيام الشيخ فارس شيخ عشيرة شمر.

عشيرة شمر(1)

شمر هى عشيرة غير متوطنة تعيش على التنقل والترحال بين النهرين، وأغلب الظن أن عددهم ثلاثون ألف شخص، ينقسمون إلى ثلاث فرق: (الجربة) و(الزيدان) و(العمر)، ويتبعون ولايتى بغداد والموصل وسنجق زور، ومشايخ تلك الفرق إما أعمام أو أبناء أعمام لبعضهم البعض؛ لذا لا توجد بينهم عداوات أو خصومات، عدوهم اللدود الدائم عشيرة عنزة الموجودة فى نواحى الشام وحلب، ودائمًا ما تتفق عشيرة شمر ضد هجوم عشيرة عنزة عليها، أما عشيرة عنزة فهى عشيرة يبلغ عدد أفرادها ضعفين أو ثلاثة أضعاف عدد عشيرة شمر، يوجد الشمريون فى فصل الشتاء بالقرب من بغداد والمناطق التى تليها، ولكنهم لا يستطيعون عبور الضفة اليسرى من نهر الفرات، أما فى فصل الصيف فيخرجون إلى ماردين وأورفة والموصل، وتمتلك تلك العشيرة أجود الخيول العربية، ولأن رأس مالهم ينحصر فى الأغنام والإبل؛ فإنهم يجلبون الزبد والخيول والأغنام للمدن القريبة منهم ويبيعونها هناك، ويشترون ما يحتاجون إليه من ملابس ثم يعودون للصحراء، وبخلاف هذا يأتى الكثير من التجار للأماكن التى يوجدون بها للبيع والشراء.

---

(1) عشيرة شمر: قبيلة عربية الأصل تعتبر من بطون طيء وتشتهر بالكرم والشجاعة والأخلاق النبيلة. (المترجم)

والشيخ فارس الذى ذهبنا لرؤيته شيخ لما يقرب من عشرة آلاف شمرى، وقد أرسل ابنه محمدًا مع مجموعة من الفرسان لاستقبالنا، وعندما وصلنا إليه أخذنا إلى خيمته، وأجلسنا على مكان مصنوع من وبر الإبل بوسط الخيمة، وقماش الخيام العربية عبارة عن نوعٍ من الأجولة السوداء الثقيلة، أما خيمة الشيخ فارس فكانت - بلا مبالغة - خيمة كبيرة للغاية، طولها خمسون أو ستون ذراعًا، وعرضها خمسة وعشرون أو ثلاثون ذراعًا، وتبدو كالقبة الضخمة المحمولة على الأعمدة، وأيًا كانت الناحية التى تأتى منها الشمس كانوا يسحبون أحبال الخيمة ويجلسون فى المكان المشمس، أما المكان المخصص للحريم فى الخيمة فقد فرق بينه وبين بقية الخيمة بستار، وكان يوجد بالخيمة خمسون أو ستون أميرًا عربيا ممن لهم مكانة بالعشيرة يصطفون على جانب الخيمة على حسب منزلتهم، وفى الناحية الأخرى من الخيمة كان يقف مجموعة من العبيد الزنوج يمسكون فى أيديهم بأباريق القهوة، كانوا يصبونها فى فناجين كبيرة بدون يد مثل فناجين كوتاهية.

وقد أعطونا من تلك القهوة أيضًا، ولأننى لا أعرف عادات تلك الأهالى؛ فقد تعجبت من قلة القهوة التى فى الفنجان، فقد كانت بمثابة رشفة واحدة، ولما أعدت الفنجان للعبد وضع لى رشفة أخرى فى الفنجان، فشربته مرة واحدة أيضًا، فوضع نفس المقدار ثالثة، فنظرت إليه فإنه بذلك كان سيسقينى وحدى كل ما بالإبريق من قهوة، فشربت القهوة، ولكنى لم أعد الفنجان إليه وأمسكته بيدى، لكن العبد العربى لم يذهب، وظل واقفًا أمامى، وكأن لسان حاله يقول: «لن أذهب ما دام هذا الإبريق لم ينته" وفى النهاية انتقل العبد إلى الشيخ فارس بجوارى، وبذلك تمكنت من دفع هذا الإبريق المخيف عن رأسى.

وبينما كنت أجلس مع الشيخ فارس فى خيمته كان رجالى ينصبون خيمتنا فى أحد الأركان، فذهبت للخيمة لأستريح قليلاً، كان الجو حارا، والشمس لا تطاق، ولأن خيمتنا لا تقاوم الشمس مثل خيام العرب الثقيلة فقد وصلت لدرجة أننى لم أعد ألتقط أنفاسى، نظرت فى ميزان الحرارة فوجدت المؤشر عند درجة ٥٠ درجة، أحضرت جرة ماء وبللت منديلى بالمياه ووضعته على رأسى، كان المنديل

يجف فى غضون عشر ثوان تقريبًا وبعد نصف ساعة دعانا الشيخ فارس لتناول الطعام فقبلت الدعوة بكل سرور لما فيها من الاحتماء بخيمته، ولأن العرب لم يكن عندهم أصول التكريم والاحترام بالقيام والقعود؛ كان الستون أميرًا الذين رأيتهم قبل ذلك لا يزالون واقفين فى أماكنهم، يدخنون النارجيلة، وكانوا يتحدثون جميعًا فى وقت واحد فيبدون وكأنهم يتعاركون، استقبلنا الشيخ فارس وأجلسنى فى المكان الذى جلست فيه قبل ذلك، ثم أحضر أربعة من العبيد صينية كبيرة للغاية بها الأرز وعليه قطع اللحم المشوى، وعندما وضع العبيد الصينية على الأرض نهض الشيخ فارس ولم يبق عليها سواى ومهران أفندى، وقال لنا الشيخ فارس «بسم الله» مشيرًا إلى الطعام، أما هو فظل واقفا أمامنا، وقد تبادلت نظرات التعجب مع مهران أفندى من كثرة الطعام، كما أن وقوف الشيخ أمامنا حيرنا أكثر.

وعلى الرغم من أننا طلبنا من الشيخ أن يجلس ليأكل معنا فإنه لم يوافق، وقال هذه عادتنا، ثم نادى على ثمانية أفراد من العريان الواقفين قائلا "فلان ابن فلان" فالتقوا حول الصينية معنا ونزلوا على الطعام بأصابعهم. كان الشيخ فارس يقف طوال الفترة التى نأكل فيها. لقد أكل الثمانية أشخاص العرب الذين جلسوا معنا كثيرًا من الأرز واللحم، ومع ذلك كانت الصينية تبدو وكأنها لم تمس من قبل، وعندما نهضنا من الطعام نادى الشيخ فارس على ثمانية عشر من الأعراب الواقفين بأسمائهم ودعاهم لتناول الطعام، والحاصل أن كل الأعراب الذين كانوا موجودين بالخيمة تناولوا من الطعام دفعات دفعات، وبقى فى الصينية بقايا من الأرز والعظم، نزل عليها ستة أطفال فى الثامنة أو العاشرة من عمرهم كانوا يقفون عرايا فى أحد جوانب الخيمة، وذلك بعد أن أشار لهم الشيخ فارس بالأكل فأتوا على كل ما بقى فى الصينية.

وبعد تناول الطعام أتى الشيخ فارس ووقف بجوارنا، وكان يريد نحر جمل إكرامًا لنا، ولكننا شكرناه على ما قام به من واجب الضيافة معنا قائلين له إننا لم نتعود أكل لحوم الإبل. وبعد أن اطلعنا على أعمال الملاحة، ودّعنا الشيخ فى المساء وغادرنا المنطقة، وبعد ذهابنا بساعة تقريبا حضر إلينا الشيخ محمد ابن

الشيخ فارس، حيث أرسله والده خلفنا بالهدايا، فقد كان إرسال الهدايا من عادات شيوخ العرب، وكنت قد أهديت الشيخ فارس بندقية اشتريتها بثلاث عشرة ليرة قبل تحركى من ماردين، فكانت هدية الشيخ فى مقابل البندقية؛ فقبلنا الهدية بكل سرور واستكملنا مسيرنا.

تحركنا من ماردين يوم السبت الموافق العاشر من شهر أغسطس، ووصلنا ديار بكر يوم الاثنين، كان الجو حارا للغاية، ولأنه لم يكن ممكنًا لنا الإقامة فى المدينة، فقد نصبنا خيامنا أمام قصر خيالى أفندى فى المكان المعروف باسم (قوس) على الضفة اليسرى لنهر دجلة فى الناحية المواجهة لديار بكر.

أما صالح أفندى، الذى تركنا بسبب مأمورية له إلى تفتيش ديار بكر وخربوط[1]، فقد وصل إلى ديار بكر فى العشرين من أغسطس، ولأنه ترك أسرته فى خربوط وأتى وحده: فقد نصب خيمة له بجوارى، وأصبح صديقًا لى.

كانت خيامنا منصوبة فى حقلٍ خالٍ على مقربة من نهر دجلة، وكنت قد أسست خيمة نومى تحت شجرة صنوبر ضخمة فى هذا الحقل، كانت الشجرة تحمينى قليلاً من حرارة الشمس الملتهبة، وذات يوم جلست للنوم بعد تناول طعام الغداء كما هو معتاد لى، وعندما نمت على السرير شعرت بأن شيئًا ما يتحرك أسفل، فقمت ورفعت السرير فإذا بثعبان ضخم يرقد تحته، فزعت من الموقف وألقيت بالملاءة التى فى يدى على الثعبان وخرجت من الخيمة مسرعًا، فخرج الثعبان من الخيمة واختبأ فى ثقب موجود بجذع شجرة الصنوبر، ولكن من سيقيم فى هذا المكان بعد أن رأى هذا؟ جمعنا خيامنا على الفور، ولجأنا إلى خيالى أفندى، حيث أقمنا هناك فترة.

أنهيت أعمالى المقررة فى تلك المناطق، وبينما كنت على وشك العودة إلى دار السعادة أرسلت إدارة الديون العمومية رسالة بضرورة التوجه إلى بغداد، وبعد إعداد لوازم السفر، أوصيت بصنع قارب (كلك) للعبور به من نهر دجلة، وكنت

---

(١) خربوط مدينة تقع فى جنوب شرق تركيا وتسمى اليوم الأزيغ، وهى تحريف اسم (معمورة العزيز) حيث كانت تسمى المدينة فى العهد العثمانى. (المترجم)

أريد أن أرسل الهدية التى أعطاها لى الشيخ فارس إلى إستانبول، ولكن مهمتى فى بغداد حالت دون ذلك فقدمتها هدية لسامح باشا والى ديار بكر، فأهدانا سامح باشا فى مقابل ذلك خيمة ذات ثلاث غرف بدون أعمدة.

من ديار بكر إلى بغداد

نهر دجلة - الكلك

نهر دجلة هو عبارة عن اتحاد مجموعة الأنهار التى تنبع من جبل (بيجار) الواقع على مسافة أربع وعشرين ساعة من ديار بكر، والقسم الآخر منها ينبع من قرية (كيدان) الواقعة بأرغنى. يجرى نهر دجلة فى أراضى ديار بكر، ثم يمر من جبال بتليس وسعرد، وهناك تصب فيه مجموعة أنهار صغيرة، هى: بطمان وبهتان ورضوان، النابعة من جبل حكارى، ثم يتحد مع نهرى زاب وديالة الكبيرين، ثم ينهمر نهر دجلة بضخامته هذه لأسفل حتى يتحد مع نهر الفرات فى مكان يسمى (قورنة) فى البصرة، ويطلق على النهرين بعد اتحادهما فى البصرة وحتى مصبهما فى خليج البصرة اسم (شط العرب).

تمتاز مياه نهر دجلة بلذتها وخفتها، ولكن يتغير هذا الطعم بالطبع بدءًا من قورنة وحتى مصب النهر فى خليج البصرة بسبب اختلاط مياه النهر بمياه البحر بسبب المد والجزر الذى يحدث فى البصرة، ويبلغ طول نهر دجلة من منبعه وحتى مصبه فى خليج البصرة ألفًا ومائتين وأربعين كيلو مترًا.

الكلك

أصبح القارب الذى أوصيت بصنعه للذهاب به إلى بغداد جاهزًا فى يوم الاثنين الثانى من شهر سبتمبر من هذا العام.

وهذا الكلك معلوم لمن قاموا برحلة من ديار بكر إلى بغداد عبر نهر دجلة، وهو نوع من القوارب المصنوعة من قطع الأخشاب وأفرع الأشجار الجافة المربوطة ببعضها ومعها القرب الجلدية المملوءة بالهواء، حيث تربط هذه القطع الخشبية وأفرع الأشجار بعضها ببعض ويترك مسافة ذراع بين كل واحدة والأخرى، ويفرش

فيما بينها بالقش والأعواد الخفيفة، ويوضع بينها القرب الجلدية، ويكون الكلك على شكل مربع، وتكون أحجام هذه القوارب على حسب قلة وكثرة المياه فى النهر، على سبيل المثال، فى فصل الربيع يصنع الكلك بمائتين أو ثلاثمائة قربة، وذلك بسبب كثرة المياه، لا يتحمل النهر كلكًا كبيرًا كهذا من ديار بكر وحتى الموصل، ولأن النهر من الموصل وحتى الأماكن التى تلى ذلك أوسع من الأماكن الأخرى؛ فإنه يتحمل كلكًا به ثمانمائة أو ألف قربة مملوءة بالهواء.

وتحمل هذه القوارب الكثير من الأحمال أثناء الفيضان، فهو لا يحتاج مياهًا كثيرة مثل باقى القوارب، حتى فى الأوقات التى تكون فيها المياه قليلة فى النهر، يمكن إنزال قارب كلك حمله مئة وخمسون قربة، ويمكن لهذا القارب حمل أغراض تتراوح بين ألف وخمسمائة أوقية وألفى أوقية.

وبالنظر لشكل إنشاء الكلك الذى شرحناه، فإن الإنسان لا يستطيع الوقوف به، حيث إن معظم التجار يستخدمونه فى نقل البضائع، وإذا ما كان هناك مسافرون على القارب فإنهم يستلقون على الأجولة أو يقفون عليها، أما الكلك الذى يصنع لنقل الرحالة والمسافرين، فيصنع على شكل خاص، حيث يصنع به مظلة تحمى من حرارة الشمس نهارًا ورطوبة وبرودة الليل، وتتكلف هذه المظلة عدة مئات من القروش زيادة عن ثمن الكلك العادى، وتكون هذه المظلة على شكل الغرفة المصنوعة من ستة أعمدة مستوية أحيط ما بينها بالكليم.

وقوارب الكلك هذه ليست كالمراكب موجودة فى كل وقت وجاهزة للإبحار، بل تصنع عندما تطلب فقط، وهناك سببان لهذا: الأول أن قرب المياه لا تتحمل المياه فترة طويلة؛ لأن المياه عندما تقل تتعرض تلك القرب للشمس والهواء، وبالتالى تتمزق. السبب الثانى أن القوارب الكلك تذهب فى اتجاه سير المياه ولا تعود من المكان الذى جاءت منه، وبالتالى فإنها تفكك عند وصولها إلى المكان المراد ويتم بيع أجزائها، ولهذين السببين؛ فإن صناع الكلك لا يصنعون مثل تلك القوارب إلا فى حالة وجود بضائع أو ركاب، حتى إن مدينة ديار بكر، تلك المدينة الرئيسية التى يمر بها نهر دجلة، لا يوجد بها كلك لنقل الركاب من ضفة النهر إلى ضفته الأخرى، ويضطر الأهالى للعبور بأنفسهم ودوابهم مترجلين من النهر فى الأماكن،

التى تسمح بالعبور منه سيرًا على الأقدام، وإذا تعذر هذا فيلزم على من يريد العبور إلى الضفة الأخرى من النهر أن يعبر من الجسر الحجرى الواقع فى مكان يبعد عن ديار بكر بمقدار نصف ساعة. وللكلك مجدافان ولكنهما ليسا لتسييره، بل لتغيير مساره فى النهر.

ولأن الرحلة إلى بغداد كانت ستمتد أكثر من عشرين يومًا بسبب الموسم الجغرافى؛ كانت هناك مشكلة فى بقائنا فترة طويلة كهذه تحت هذه المظلة.

لذا أمرت بأن يصنع فى الكلك الذى سأسافر عليه غرفة جميلة، سطحها مستوٍ، وأطرافها من الخشب المجدول، بهذه الغرفة ثلاث نوافذ زجاجية وباب، وبها مرحاض، وسلم يصعد به لأعلى بين الحين والآخر.

كانت قوة الكلك الذى أمرت بصنعه مائة وخمسين قربة، والمكان الذى كان يحيط بالغرفة فيه كان لا يتسع إلا لشخصين فقط، وعندما رأيت أنه لا توجد إمكانية لتحميل أمتعتنا، التى كانت عبارة عن صندوقين وثلاث خيام، وخاصة المطبخ، أرسلتها مع الرجال المرافقين لنا فى الرحلة إلى حصن كيف برًا، وتصورت أننى سآمر بصنع كلك آخر لهم يقلهم من حصن كيف[1]، لأن المسافة إلى حصن كيف برًا يومان، أما بالكلك فتستمر ستة أيام نظرًا لقلة المياه؛ وبالتالى كانت الفترة المستغرقة حتى وصولنا إلى حصن كيف تكفى لإعداد كلك، وبعد أن ودعت الأصدقاء، أبحرنا بالكلك من (قوس)، وبعد خمس دقائق من تحركنا هبت رياح جنوبية شديدة عند منطقة (هضبة قريقلر) حالت دون تقدمنا، وبالتالى، اضطررنا للتوقف فى منطقة تسمى (عجم كولى)، وعندما رأى الأشخاص الذين ودعونا الكلك قد توقف، حضروا إلينا وأحضروا الأمتعة وأوصوا بعمل كلك آخر ما دمنا سنتوقف هنا يومين انتظارًا لتوقف الرياح، ولأن هذا الرأى كان مناسبًا وافقت عليه، وقررت عدم الخروج إلى الشاطئ والإقامة فى الكلك طوال فترة عمل الكلك الثانى.

---

(١) حصن كيف: (كيف) مدينة تركية على نهر دجلة تقع فى محافظة باتمان فى جنوب شرق تركيا، فتحها العرب عام ٦٤٠م وبنوا جسرها على دجلة. (المترجم)

تم إعداد هذا الكلك الثانى فى يوم الجمعة الموافق السادس من سبتمبر، وكان كلكًا قوته مئة قربة، وكان اليوم التالى لهذا اليوم هو عيد الأضحى، وبالتالى اضطررنا للإقامة يومًا آخر لأداء شعائر صلاة العيد، وتحركنا من (عجم كولى) يوم العيد مساءً، وأثناء طريقنا عرجنا على قرية (جاروقى) الواقعة على مسافة ساعة ونصف من ديار بكر، ورافقنا مهران أفندى المفتش ليعود بالدواب إلى ديار بكر، ولأن الرياح كانت غير مواتية: لم نتمكن من الوصول إلى جاروقى إلا بعد ثلاث ساعات.

ودعنا مهران أفندى الذى عاد إلى ديار بكر ليلاً، أما نحن فأقمنا هناك ليلتنا، وقد قلت الشموع التى كانت معنا من أجل الطريق؛ لأننا استخدمناها خلال الفترة التى أقمنا فيها فى عجم كولى، وقد أوصيت مهران أفندى أن يشترى لنا ثمانى أو عشر مجموعات من الشموع ويرسلها لنا فى الطريق، وقد تحركنا من قرية جاروقى مع ظهور الشفق، وعند وقت العصر ظننت أننا قطعنا مسافة طويلة، ولكن واقع الحال أننا لم نسر إلا مسافة قصيرة؛ لأن الرجل الذى كان يحمل الشمع الذى أوصيت مهران أفندى بجلبه لحق بنا فى الطريق وأخبرنا أنه خرج من ديار بكر من ثلاث ساعات، وعند المساء توقفنا فى المكان الرملى الواقع بين قرية (أرزو أوغلو) وقرية (هوجتى)، وقضينا ليلتنا هناك.

وفى تمام الساعة الواحدة من اليوم التالى وصلنا قرية (هولان)، كانت هذه القرية على مسافة أربع ساعات من ديار بكر، حتى إننى قضيت إحدى الليالى هنا أثناء عودتى من سعرد برا، وفى تمام الساعة العاشرة وصلنا إلى قرية (بسمل) التى تبعد ثمانى ساعات عن ديار بكر. أهالى تلك القرية من التركمان، ويشتهرون بمهنة تربية الإبل. سرنا إلى الأمام من قرى بسمل وتزكلى، وتوقفنا فى مكانٍ خالٍ، وقضينا الليل هناك.

ولأن المياه كانت ضئيلة أثناء عبور الكلك، ولم يجد السمك مكانًا يهرب إليه؛ كان يقفز ويلقى بنفسه فى الكلك، وكنا نفطر بهذا السمك الذى يقف تحت أرجلنا بدون صيد وبدون أى مجهود، كان اليوم التالى هو اليوم العاشر من شهر

سبتمبر واليوم الرابع لتحركنا من ديار بكر، حيث وصلنا فى تمام الساعة الثانية والنصف أمام قرية (بوجه لى)، ثم وصلنا بعد ذلك إلى قرية (عوته) التى كانت تعد ميناء سعرد فى فصل الربيع، وهذا يعنى أننا وصلنا إلى قرية (عوته) التى كنا نذهب إليها فى سبع ساعات فقط، فى أربعة أيام، وفى تمام الساعة الثانية ليلاً توقفنا أمام قرية (زيوى) الواقعة على الضفة اليمنى للنهر، والتى كانت على مقربة من مياه (بطمان)، ولأن هذا اليوم كان يوافق الرابع عشر من الشهر الهجرى؛ ولأن الهواء كان ساكنًا؛ كان ضوء القمر غاية فى الجمال؛ فصعدت إلى أعلى الغرفة وتناولت طعام العشاء على ضوء القمر.

وعلى الرغم من أن الأنهار الصغيرة التى تصب فى نهر دجلة من ديار بكر متعددة، فإن معظمها كان جافًا فى هذا الفصل، ولم يكن منها ما هو دائم الجريان سوى نهر بطمان، حيث كان هذا النهر ينبع من جبال (قولب) الواقعة بولاية بتليس، ويسير مخترقًا القطعة المعروفة ببشيرى، الواقعة بين سعرد وديار بكر حتى يصب فى نهر دجلة.

وفى صباح يوم الأربعاء الموافق الرابع عشر من شهر سبتمبر تحركنا من قرية (زيوين) وحينئذ أخبرنا سائق الكلك، ويدعى محمداً، بأننا على وشك العبور من ممر مهم هو مضيق نهر بطمان، وتعنى كلمة الممرات فى الأنهار أضيق المجارى المائية، التى توجد بالنهر وقت قلة المياه، حيث تظهر بجوارها الأماكن الصخرية القابعة فى قاع النهر، وبخلاف الضيق الشديد لهذه الممرات المائية توجد أيضًا صعوبة كبيرة فى عبورها بسبب الانحدار الشديد، وشدة اندفاع المياه من أعلى إلى أسفل مما يجعلها تشبه الشلالات، وفى بعض الأحيان كنا نصادف صخورًا كبيرة فى وسط مجرى النهر كانت تبدو وكأنها جزيرة، كان يلزم علينا أن نعبرها، والنتيجة أن تلك الممرات المائية كانت إحدى المخاطر الرئيسية لرحلتنا فى نهر دجلة بالكلك. فى الواقع بدأنا نسمع صوت خرير المياه بعد عدة دقائق، وقام سائق الكلك بمهارة فائقة باجتياز تلك الصخور الكبيرة، وعندما أصبحنا عند باب المضيق تمامًا سار الكلك بسرعة كبيرة مع مجرى المياه، وعلى الرغم من أنه عبر الشلالات بشكل يدعو للدهشة والحيرة فإنه لم يتعقب مجرى المياه، وارتطم بصخرة فتوقف، وتمكن من تحويل وجهة الكلك بصعوبة بالغة، وفى تلك الأثناء

فسدت بعض القرب التى تحمل الكلك، فانسحبنا إلى جانب النهر لإصلاحها، واستمر وقت الإصلاح هذا خمس ساعات.

والمكان الذى توقفنا عنده كان بمثابة النقطة التى تنتهى فيها سلسلة جبال (مديات) مع نهر دجلة، والقسم الذى كان يسير بمحاذاة النهر من هذه الجبال كان عبارة عن نوعٍ من الأحجار البيضاء التى تشبه الطباشير، وكانت مرتفعة للغاية ومستوية مثل الحائط، وقد لفت انتباهى فى هذا المكان وجود مساكن للبشر كانت قد نحتت فى الجبل على ارتفاع ثلاثين أو أربعين مترًا من سطح الأرض، وهى عبارة عن غرف لها نوافذ وبها درج للصعود به من طابق إلى طابق، ولكنها اليوم بمثابة أعشاش للنسور؛ لأن الإنسان لن يستطيع أن يصعد مثل هذا الارتفاع ويسكن به.

فلم يكن هناك أى أثر لطريقٍ قط، سواء طريق الصعود أو طريق الهبوط، وأغلب الظن أن تلك الآثار كانت قديمًا أعشاشًا للطيور حفرتها فى هذه الصخور المستوية، وكان النهر قديمًا يسير فى اتجاه آخر، وبفعل التقلبات الأرضية أصبح مجرى المياه يسير من خلال تلك الجبال، وبذلك تهدمت نصف تلك المنازل ومداخلها ومخارجها، ولم يبق إلا آثارها.

وفى الأوقات التى تقل فيها المياه يقوم أهالى القرى المجاورة بالزراعة على الأراضى الرملية على ضفتى النهر وعلى الجزر الوسطى التى تظهر وسط المياه، ولاشك فى أن تلك الأراضى الرملية أراض منبتة وتدر محاصيل وافرة، ولما رآنا الحراس الأكراد أو أصحاب البساتين قد وقفنا فترة طويلة فى المكان الذى توقفنا فيه لإصلاح الكلك؛ خشوا أن نستمر فى هذا المكان حتى المساء ونقوم بسرقة البطيخ الموجود هناك، فأتوا إلينا وقالوا لنا وكأنهم ينصحوننا: "إن هذا المكان صخرى، وإذا ما بقيتم هنا للمساء ربما تهب عاصفة تعرض قاربكم للضرر أكثر، فلتسيروا إلى الأمام حيث يوجد مكان يناسبكم أكثر من هذا، فإذا ما ذهبتم إلى هناك فسيكون أفضل لكم"، ولم نكن بحاجة إلى هذا؛ لأن إصلاح الكلك انتهى قبل حلول المساء، تحركنا من هناك، وبعد ساعة من تحركنا هبت عاصفة شديدة مصحوبة بسحب ممطرة، وربطنا الكلك إلى الساحل، واضطررنا لقضاء الليل فى

هذا المكان، استمرت العاصفة طوال الليل، أما المكان الذى توقفنا به فكان مكانًا به أشجار، وكان خاليًا، وكانت الأصوات الناتجة من شدة الرياح مع أفرع الأشجار تجلب صدى مخيفًا، كما أن سرعة السحب السوداء كانت تدعو للدهشة، كنت أشعر وكأننى فى حلم مخيف، وفى اليوم التالى سكنت الرياح، واستكملنا مسيرنا عند وقت السحر، كان على جانبينا الجبال الشاهقة، وبعد فترة رأينا ما يقرب من خمسة عشر رجلاً قابعين تحت صخرة، على أى حال، كانت رؤيتهم قد جلبت السعادة لى؛ لأن رؤية البشر حتى ولو كانوا لصوصًا، وسماع أصواتهم بعد السير فترة طويلة فى أماكن خاوية كهذه أمر يجلب السعادة فى النفس.

وبعد أن سرنا قليلاً توقفنا جانبًا لتناول طعام الغداء، وفجأة ظهر قطيع أغنام وعدة أكراد من بين الصخور فى هذا المكان الذى ظننا أنه خالٍ وغير آهل.

لقد كان هذا المكان الصخرى مقيدًا فى السجل السلطانى باسم (قريشا) وبه ستة منازل، كانت تلك المنازل عبارة عن ثقوب ترى وكأنها أعشاش للنسور بين الصخور فى أماكن غاية فى الارتفاع لا يمكن للإنسان أن يتجول بها، وقد طلبنا من هؤلاء القريشيين أن يبيعوا لنا شاة مما عندهم، وقلنا لهم إنهم سيبيعونها بحساب تسعة عشر قرشًا، ولكنهم لم يقنعوا بذلك وقالوا إنهم لن يعطوها لنا بأقل من مائة وعشرين قرشًا، وقد تعجبت من المهارة الخاصة لهؤلاء الأشخاص الذين يعيشون فى هذه الأماكن الجبلية وبين الصخور فى البيع والشراء، واقتنعت بأن هؤلاء الناس حقًا أذكياء ذوو خبرة.

وبعد تناول الطعام استكملنا مسيرنا، وبعد تقدمنا بنصف ساعة رأينا أطلالا على إحدى الهضاب الموجودة، فسألت الملاح محمد عنها فقال: "يقولون إنها قلعة «علو دينو»، وعلو دينو تعنى علاء الدين، وكان لصًا مشهورًا قديمًا، وله قصر أيضًا على ضفاف نهر دجلة بالقرب من جزرة، وقد قام هذا اللص بوضع سلاسل حديدية من قصره وحتى الضفة الأخرى على نهر دجلة، وكان يستوقف الكلكات القادمة ولا يسمح بمرورها إلا بعد دفع مقدار من المال على حسب حمولاتها، وعلى الرغم من أن هذا اللص ظل فترة طويلة؛ فإن أحدًا لم يتعرض له، وفى

نهاية الأمر قام متسلم جزرة بوضع أربعين رجلاً مسلحًا فى كلك وألبسهم زى النساء، وجعلهم يمرون من أمام قصر علاء الدين، وعندما أوقفهم علاء الدين هذا طلب منهم دفع المال، أو أن يختار واحدة من تلك النساء لتكون جارية له فأخبروه بأنهم لا يمتلكون المال، فقرر الدخول للكلك واختيار واحدة من تلك النساء، وبمجرد أن دخل الكلك وثب عليه الأربعون رجلاً، وقبضوا عليه، وسيق إلى ديار بكر، وهناك أعدم بالخازوق (والعهدة على الراوى).

وفى تمام الساعة الثامنة مررنا من أمام قرية تسمى (مردس) تقع على الضفة اليمنى للنهر، لم يكن بهذه القرية أى أثر لحدائق أو بساتين، وأغلب الظن أن الزرع موجود بالناحية الأخرى من الجبل، وقد أشار محمد (الملاح) إلى منزل من طابقين له نوافذ زجاجية، وقال هذا منزل عبدى أغا، أغا القرية، كان عبدى أغا هذا رجلا من الأثرياء ذوى النفوذ فى تلك النواحى.

ولكن ما فائدة هذا؟ فعلى ما يبدو أن الرجل كان لا يمتلك طبيعة حسنة، فلم يكن بجوار منزله ولو شجرة واحدة، إن عبدى أغا رجل ثرى، وهو صاحب القرية، ولكنه إذا ما حلف قائلاً: "ليست لى شجرة واحدة فى هذه الدنيا" فلن يحنث فى يمينه.

تقدمنا مقدار ساعة، وبدت لنا قرية كبيرة على الضفة اليسرى تسمى (شكفتان)، كانت هذه القرية بداية حصن كيف، وفى هذا المكان أيضًا تنتهى سلاسل جبال مديات المذكورة سابقًا، سرنا مقدار ثلاث ساعات أخرى ورأينا العديد من القرى على الضفتين، ووصلنا حصن كيف بعد آذان العشاء.

وقبل أن نرى المدينة رأينا العديد من الحقول المزروعة والبساتين على ضفتى النهر، كان الهواء ساكنًا لطيفًا، وبعد غروب الشمس بزغ القمر من بين الأشجار ورأينا قطعان الأغنام العائدة من المرعى، كان المنظر متناغمًا للغاية، وغصت فى أعماق خيالى مع هذا المنظر الخلاب الخاص بوقت الغروب، والذى ينم عن تناغم خاص، وفجأة، خرجت عن تلك الأحاسيس الخيالية على صوت صياح الأونباشى

عمر، وصوت ضجيج فى الكلك، فقد ابتل الأونباشى عمر عن آخره بالمياه عندما.. كان الكلك يعبر أحد المضايق وارتطم بشدة بسبب ارتفاع الشلال.

حصن كيف

حصن كيف ناحية تتبع قضاء مديات التابع لسنجق ماردين، تضم ست قرى، اسمها الصحيح (حصن كيفا)، ويستدل من الآثار الموجودة اليوم أن حصن كيف كانت مدينة عامرة وكبيرة قديمًا، فضفتا النهر مملوءتان بالآثار، ومما يلفت النظر هناك: الفنون المعمارية التى تضم العديد من القبور، وبقايا جسر كبير، وأطلال أحد المساجد ومآذنه.

أما حصن كيف اليوم فهى عبارة عن قرية تضم ستين أو سبعين منزلاً عبارة عن غرف متفرقة، والمدينة مشهورة بعقربها الذى يقتل فى الحال، وأوقيتها التى تزن ستمائة وأربعين درهمًا.

سحبنا قاربنا إلى الجانب وقضينا الليل هناك، وفى صباح اليوم التالى كنا نريد الخروج للمدينة لشراء بعض الطعام والمستلزمات الأخرى، وقد سألنا عن السوق إلا أنهم أخبرونا بعدم وجود أى أسواق عندهم، وبالتالى لم نوفق حتى فى شراء بصلة واحدة، وفى النهاية لحق بنا العمدة وكاتب الحكومة وأعطونا أوقية من الزيت السادة، وعلمنا منهم أن الأوقية فى حصن كيف تساوى ستمائة وأربعين درهمًا، وفى تمام الساعة الثانية تحركنا من حصن كيف.

وعلى الرغم من أن العواصف والرياح الشديدة كانت تهب بين الحين والآخر علينا؛ فإننا لم نتوقف عن السير، وسرنا بين مخاطر العواصف من ناحية، وبعض الممرات والمضايق الصخرية الخطيرة من ناحية أخرى، ووصلنا قرية (شىء) الساعة التاسعة والنصف، وقرية (حندوك) الساعة الحادية عشرة، وقرية (بيله كا) الساعة الواحدة والنصف ظهرًا، وتوقفنا هناك، وفى اليوم التالى وصلنا إلى قرية (عوته) فى تمام الساعة الثانية ظهرًا، وقد ذكرنا قبل ذلك أن تلك القرية كانت ميناء لسعرد، وفى قرية عوته تقابلت مع أحمد نديم أفندى مدير الديون العمومية بسعرد، والمفتش ديمتريادس أفندى، ولم نستمر فى رحلتنا فى هذا

اليوم بالطبع، بل قضينا الليلة هناك، لقد كان موقع قرية عوته غاية فى الجمال، وخلف القرية كانت الحدائق تنتشر بطول ضفة النهر من جبال بهتان فتبدو لطيفة للغاية وكأنها قطع زمرد.

وفى صباح يوم الأحد الموافق الخامس عشر من شهر سبتمبر ودَّعت المدير والمفتش وتحركت من عوته، وبعد قليل من سيرنا عبرنا من المكان الذى يصب فيه نهر بهتان فى نهر دجلة، ولأن نهر بهتان الذى يعد من الأنهار المهمة نسبيا فى تلك المناطق ينضم مع نهر دجلة فى هذا المكان؛ فإن سرعة النهر تزيد نسبيا؛ مما أدى إلى ازدياد سرعة الكلك.

وعند مضيق نهر بهتان توجد قرية للنصارى باسم (تيل)، وهى قرية على شكل الجزيرة وسط النهر، ويستدل من أطلال الحوائط الضخمة التى ترى حاليًا بطول مجرى النهر أمام هذه القرية أن هذا المكان قديمًا كان عبارة عن مكانٍ مستحمٍ.

وبعد قليل وجدنا أحد الأكراد يقف بجوار قرية (موهينه)، وسألنا: هل هذا كلك فلان؟ وذكر اسمى، فقلت له: لماذا تسأل؟ فقال: إن على أغا، أغا قرية جليلك، ينتظر تشريفكم، سأسبقكم وأخبره، وقد تعجبت من هذا؛ لأننى لم أكن أعرف أحدًا فى تلك النواحى باسم على أغا.

وبعد أن سرنا إلى الأمام قليلاً، بدا لنا خان وطريق، كان هذا الطريق هو الطريق الواقع بين سعرد ومنطقة بهتان، ويسمى (شبله)، وفى تمام الساعة الرابعة وصلنا إلى قرية (جليك) الواقعة على الضفة اليمنى للنهر، وتنحينا جانبًا لتناول طعام الإفطار.

وفى تلك الأثناء أتى إلينا على أغا الذى علمنا أنه ينتظرنا، ودعانا للذهاب إلى منزله، كان على أغا شابًا فى الخامسة والعشرين من عمره، يرتدى جبة عنترية من الحرير الأحمر، وعلى رأسه طربوش ملفوف عليه كوفية طويلة، علمت منه أنه ذهب إلى إستانبول قبل عدة سنوات مع الأمراء الأكراد الذين أرسلوا إلى إستانبول من قبل لجنة الإصلاحات، ولكنه عاد إلى وطنه دون أن يتعلم كلمة واحدة من اللغة التركية، وأخبرنى أنه يكرم أى ضيوف أو مسافرين يعلم أنهم من

إستانبول؛ نظرًا للمعاملة الحسنة التى رآها من أهالى إستانبول والتى يعاملون بها الأغراب، فشكرته على مشاعره النبيلة تجاه أبناء مدينتى، وطلبت منه أن يعفينى من الذهاب إلى بيته، وطلبت منه أن يتناول هو الإفطار معنا.

وقد سألته عن أحوال تلك النواحى، وفهمت من إجابته أنه لا يعلم شيئًا عن الأمور اللازم معرفتها إداريا وسياسيا، وقد رأيت قطعان الأغنام الكثيرة فى ناحية (بهتان) ونصحته بالإكثار من تلك الأغنام.

وتعد قرية جليك محل العبور للطريق الذاهب إلى ناحية بهتان من مديات، ولنقل المسافرين من ضفة النهر إلى الضفة الأخرى، كان يوجد كلك صغير قوته عشرون قربة تقريبًا يقف أمام القرية لنقلهم، وحينئذ ظهرت مجموعة من المسافرين الذين يريدون ركوب الكلك، وكان معهم خيول وحمير، فتم نقل الركاب بالكلك، وأنزلت الخيول فى المياه فسبحت حتى الضفة الأخرى، أما الحمير فقد تركت، فمن المعلوم أن الحمير لا تسبح فى المياه.

وهناك مثل يقول «إن الحمير لا تعبر من الماء» [1]، وانتظرت حتى أرى كيف سينقلون تلك الحمير إلى الضفة الأخرى من النهر، فوجدت عمال الكلك عادوا إلى الضفة الأخرى من النهر بعد أن نقلوا الركاب، وقاموا بإنزال الحمير فى المياه بصعوبة بالغة، وقبل أن تغطى المياه أرجلهم قاموا بربطهم فى أطراف الكلك، وعبروا بهم بصعوبة وبطء، وهنا علمت أن المثل السابق صحيح.

وقد سألت على أغا إذا ما كان عنده علم بآثار الأطلال التى رأيناها فى قرية (تيل) عند مضيق نهر بهتان، فقال : «إنها قلعة قديمة بناها الجن فى عهد سيدنا سليمان عليه السلام»، وعلى ما يبدو أنهم هنا يقولون عن كل الآثار القديمة إنها من بناء الجن، كما أننا فى إستانبول نقول عن كل الآثار القديمة الباقية من أى عصر كان إنها من بناء الجنويين.

وكان يوجد عدة أضرحة مقببة حول قرية جليك، بعضها قبور أجداد على أغا، وقد ذكرنا قبل ذلك أن الأكراد يظهرون الاحترام والتبجيل لأى قبر كبير أو مقبب، وأنهم شغوفون بزيارة مثل تلك القبور، ويدعون عندها ويربطون أفرع

(١) المثل بالتركية فى الأصل. (المترجم)

الأشجار حولها، على الرغم من أنهم لا يعلمون من هو المدفون فى هذا القبر أصلاً.

ودعنا على أغا فى تمام الساعة الخامسة، وأثناء تحركنا من قرية جليك أهدانا سمكة كبيرة، فقبلناها منه بكل سرور، وبداية من تلك القرية وما يليها من أماكن بطول ضفتى النهر تحيط الجبال الخضراء العامرة - التى تشبه الزمرد - بضفتى النهر، وأحيانًا تقترب تلك الجبال مع بعضها البعض فتصبح مثل الحائط، وأحيانًا أخرى تتباعد عن الساحل وتشكل سهلاً صغيرًا، تنتشر به الكثير من القرى الصغيرة التى يوجد بكل واحدة منها ثلاثة أو خمسة منازل.

وأكراد منطقة بهتان أكراد مطيعون للغاية، ويعملون بجد، ويختلف زيهم عن زى بقية الأكراد، فيضعون على رءوسهم عمامات طويلة مصنوعة من الوبر، ويرتدون قمصانًا ذات أكمام طويلة، وفى الأوقات التى لا يعملون فيها يجعلون تلك الأكمام تنزل حتى الأرض، وإذا ما قاموا بأى عمل يقومون برفع تلك الأكمام.

وفى تمام الساعة الحادية عشرة رأينا بناءً صغيرًا على الضفة اليسرى للنهر، وبعدها شممنا رائحة مادة الكبريت، ولأن الوقت كان مساء رسونا على الشاطئ، وذهبت لأرى هذا الحمام، كان عبارة عن بناء مربع الشكل بنيت حوائطه من الحجارة، ويتوسطه حوض مملوء بالمياه المعدنية الساخنة، ولأن بابه مفتوح على الدوام فإنه استخدم كحظيرة للدواب، فضلا عن كونه حمامًا، وقد وصلت إلى هذه النتيجة من الرائحة الكريهة التى كانت تنتشر بالمكان، وقد دخل محمد سائق قاربنا الحمام ليقضى حاجته، ولكنه أدرك أننا لن نستطيع الوقوف بجواره بسبب الرائحة التى تنتشر منه، فسار بالقارب مقدار عشر دقائق وأرساه فى مكان مناسب.

وعلى الرغم من أن ضفة النهر هنا صخرية ومرتفعة مثل الحائط فإن المكان كله مغطى بالأعشاب والحشائش الخضراء؛ نظرًا لأن المياه تتدفق فيه من كل مكان، وفى أحد أركان هذا المكان الصخرى كان يوجد أطلال بناء سألت محمدًا عنه، فقال "إن الله تعالى خلق تلك المنابع فى أماكن صخرية وعرة كما ترون، وإن

تلك المنابع لا تصب إلا فى نهر دجلة، ولو أن الله تعالى كان يريد أن يستفيد البشر من هذه المنابع لخلقها فى مكان أيسر من هذا، وجاء رجل أراد أن يخالف إرادة الله تعالى وبنى طاحونة فى هذا المكان بغية الاستفادة منه، ولم يدفع هذا الرجل حق منفعته من هذه المنابع، وقبل مرور ستة أشهر على بنائه الطاحونة هبت عاصفة قوية فدمرت الطاحونة عن آخرها».

تحركنا من هناك صباح يوم الاثنين الموافق السادس عشر من شهر سبتمبر، وعلى مسافة ساعة إلا ربع من هذا المكان، وعلى الضفة اليمنى للنهر، كانت توجد آلاف المنابع المائية الصغيرة الموجودة على ارتفاعات مختلفة، ولأن جزءًا كبيرًا من تلك المنابع يمتلئ بالمياه أثناء فيضان نهر دجلة فإن مسألة كيفية الانتفاع بهذه المياه كانت مشكلة كبيرة كما قال محمد قبل ذلك.

وكلما كنا نسير إلى الأمام كانت الجبال الموجودة على ضفتى النهر تقترب من بعضها؛ مما جعل مجرى النهر يضيق.

وبعد ساعة وصلنا مكانًا يطلق عليه (كرداب)، وهناك رأينا صخرة كبيرة مثل الجزيرة تتوسط النهر، كانت هذه الصخرة تحجز قسمًا كبيرًا من المياه، والقسم الباقى كان يسير من على جانبى الصخرة كالممر الصغير؛ لذا فإن شدة جريان المياه فى هذا المكان كانت كبيرة، تبدو لنا وكأنها عملاق عظيم، وعلى الرغم من أن ملاحى الكلك بذلوا كل ما فى وسعهم لتخطى تلك الصخرة؛ فإنهم لم يستطيعوا مقاومة شدة جريان المياه، فاصطدمنا بأحد جوانب الصخرة، وثقب ما يقرب من عشر قرب من القرب التى تحمل الكلك، ولأن أحد القوارب التى كانت تنقل بعض المهمات الحربية إلى بغداد قبل عشرين أو ثلاثين عامًا قد اصطدمت بتلك الصخرة، وتحطمت، وسقط مدفع فى المياه؛ فإنهم يطلقون على تلك الصخرة (صخرة المدفع).

حقيقة الأمر أن هذا الممر المائى كان فى غاية الخطورة، وكنا سنلاقى مصير المدفع الذى سقط فى النهر، ولكننا نجونا، ويطلق على تلك المنطقة الموجود بها هذه الصخرة (كرخ ديوان)، وأحيانًا تتساقط بعض أحجار الجبل وتسقط فى

المياه فتشكل رأسًا تتجمع عندها المياه، وتتكون رأس من تلك الرءوس كل ثمانى أو عشر دقائق، وفى تمام الساعة الرابعة والنصف أخبرنا الملاح محمد بأننا أمام قصر علاء الدين الذى حكى لنا حكايته قبل ذلك، كان القصر عبارة عن بناء مربع الشكل بنى على صخرة مرتفعة لعدة أذرع عن الساحل فى الجهة اليمنى للنهر، ولم يتبق اليوم من القصر إلا الأربعة حوائط فقط، أما السقف فقد تهدم، وللقصر ثلاث نوافذ ذات قبو تطل على النهر، وإذا ما نظرنا إلى وضع القصر على هذه النقطة الضيقة من نهر دجلة، سيتضح لنا أن هذا القصر كان فعلا لشخص اتخذ اللصوصية متعة ولهوًا له، وأن حكاية الملاح محمد عنه لم تكن من نسج الخيال.

بدأت الجبال تبعد عن ساحل النهر؛ مما أدى لوجود سهل فسيح. وفى تمام الساعة العاشرة مررنا من أمام قرية (فندق) المشهورة التابعة لبهتان، وبها أشجار كثيرة، وبينما كانت أبنيتها قديمًا مبنية بالحجارة فإنها آلت للخراج لفترة، ولم يقم الأهالى بترميم المبانى الأثرية وتوطنوا هناك فى المنازل العادية التى أنشأوها حديثًا.

كما توجد آثار قلعة متهدمة، وللعبور من النهر كان يوجد زورق مثل المركب مستو من أسفل مصنوع من الخشب يشبه الشكل الذى رأيناه فى نهر الفرات، ومن بعد هذا المكان بدأت صفحة نهر دجلة تتسع وتقل المضايق والممرات المائية الخطيرة، وإلى الأمام قليلا عبرنا من أمام قرية (المنصورية) التى تعد محل مرور نهر دجلة، وفى تمام الساعة الواحدة صباحًا وصلنا قرية (جزرة)[1] الواقعة على الضفة اليمنى للنهر.

جزرة

الاسم الصحيح لها هو جزيرة ابن عمر، وهى مركز قضاء يتبع ماردين، والسبب فى إطلاق اسم الجزيرة عليها أنها وقت فيضان نهر دجلة تملأ المياه خنادق القلعة؛ وبالتالى تصبح المدينة بمثابة الجزيرة، والقصبة بأكملها تقع داخل

---

(١) جزرة ميلاج تقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات يخترقها طريق عام دير الزور. (المترجم)

القلعة، وعلى الرغم من أن أهلها مثل أهالى ماردين يتحدثون العربية والكردية؛ فإن اللغة الكردية غالبة عليهم، ويوجد جسر خشبى للعبور من القصبة إلى الضفة الأخرى من النهر. أقمنا فى جزرة يوم الثلاثاء الموافق السابع عشر من شهر سبتمبر، حيث أكملنا ما ينقصنا فى الكلك من إصلاح وتعمير وزاد ومياه، وخلافه.

وفى صباح يوم الأربعاء التالى تحركنا من جزرة على الرغم من أن السماء كانت ترعد وتبرق والمطر ينهمر، تحركنا لأن الجو ليس به رياح تعوق سير الكلك، ولم نعبأ باضطراب حالة الجو، وبعد أن تقدمنا فى النهر نصف ساعة عبرنا من أمام قرية (حصير دلان) الواقعة على الضفة اليسرى للنهر، وكان منظرها بديعًا للغاية بحدائقها الغناء، ثم مررنا من أمام أطلال الجسر الشهير المعروف باسم (بافى) وظل المطر ينهمر علينا أربع ساعات متوالية، ولم تتفرق تلك السحب المطرة إلا بهبوب تلك الرياح الشديدة التى كنا نخشاها، وبالتالى حالت دون تقدمنا فى النهر فتوقفنا على الشاطئ فى مكان يمتلئ بالحصى، وعلى الرغم من أننا حاولنا إبعاد الكلك عن هذا المكان لما فيه من خطر على القرب الموجودة بالكلك؛ فإن كل الجهات بالساحل لم تكن تسمح بتحريك الكلك: لذا اضطررنا للتوقف فى المكان الموجودين فيه.

كانت الرياح تزداد بمرور الوقت، وبدأت تأخذ شكل رياح شهر نوفمبر، كنت أنظر إلى جبل الجودى المشهور الذى كان يبدو من بعيد، أما الرياح فاستمرت حتى منتصف الليل.

ولم يخطر ببالى التجول بمركب شراعى فى ذلك الوقت، فقد كان المركب الشراعى فى هذا الوضع بمثابة السفينة بالنسبة للكلك، فالرياح لا تمنع سير المركب الشراعى، أما بالنسبة للكلك فالرياح تعوق سيره كلية، فالريح لو هبت لمدة عام فإنها لا تفيد الكلك بشىء، ولكن المهم للكلك المياه.

وفى صباح اليوم التالى الموافق الخميس تحركنا مبكرًا مستفيدين من سكون الرياح، فقد تحركنا قبل الشفق حتى نتمكن من قطع مسافة كبيرة، ولأن محمود أفندى أحد الأفراد الحاكمين الذين تقابلت معهم فى جزرة له حديقة جميلة فى

قرية الريحانى الواقعة على ضفاف نهر دجلة؛ فقد قال لنا محمود أفندى إنه سينتظرنا يوم الثلاثاء القادم لزيارته، ولكن مخالفة الرياح لنا جعلتنا نتوقف بين جزرة والريحانى لمدة يومين، ولأن الرياح سكنت؛ فقد رأيت أن من الأفضل عدم الذهاب لحديقة محمود أفندى لنستفيد بهذا الجو الجيد فى مسيرنا؛ لأن الحديقة كانت على مسافة نصف ساعة من النقطة التى نتوقف بها، ولم يكن متبقيًا على الصباح إلا ساعة ونصف فقط، ولضيق الوقت لم نتوقف للزيارة وتابعنا مسيرنا، وعلى حد تعبير الملاح محمد كانت هذه الحديقة جميلة للغاية ولم يكن لها مثيل فى العالم كله، وبها فاكهة لا توجد حتى فى إستانبول، حتى انه كان بها خوخ ليس له بذر أو غلاف.

ليزد الله صاحبها، ماذا نفعل؟ لم يكن لنا نصيب فى تلك الفاكهة النادرة.

وعلى مسافة ثلاث ساعات من السير تصادف مرورنا من مكان يعد ممرًا للنهر، وهو مكان يمر من مراعى عشيرة (ميران)[1] وحتى الصحراء، ومن العجائب التى رأيتها فى هذا المكان عبور الأهالى هناك - ويقدر عددهم بعشرة آلاف نسمة والدواب بمختلف أنواعها - من ضفة نهر دجلة إلى الضفة الأخرى، فمجموعة انتقلت إلى الضفة الأخرى، ومجموعة أخرى كانت تنتظر عبورها، ومجموعة أخرى كانت تعبر من خلال سلاسل كانت بمثابة الممر سحبت من الضفة إلى الضفة الأخرى من مكان أو اثنين فى النهر، مر قاربنا من بينهم وتابعنا مسيرنا.

وبعد أن سرنا عدة ساعات فى النهر وصلنا أمام قرية كبيرة نسبيًا تسمى (بشخابور) تابعة لجزرة على الضفة اليسرى للنهر.

كانت تلك القرية ناحية المركز، ويمر منها الطريق الذاهب من ماردين وحتى الموصل، ويوجد بها نوع من الزوارق التى تشبه الزوارق التى رأيناها فى قرية فندق لنقل الركاب وعمال البريد من ضفة النهر إلى ضفته الأخرى، منازل القرية

---

(١) عشيرة ميران ويدعون أيضًا كوجار ومعناها بالكردى بدو رحل وهم رعاة متنقلون، منطقتهم قضاء ديريك حتى تل رميلان فى قراهم المسماة كرة صور - كريلات - باشكفت - شكر حاج - وادى السوس. (المترجم)

كبيرة إلى حد ما وهى من الحجارة، وتدل على أن أهل القرية أثرياء. استفدنا من جودة الطقس وسرنا ليلاً حتى الواحدة صباحًا، وقضينا الليلة فى نقطة تقع بين جبلى (بوطمة) و(قره جاق) اللذين يحدان الصحراء.

تحركنا فى تمام الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى، وبينما كنا نمر من أمام قرية عربية على الضفة اليمنى للنهر، إذا بجندى من الجنود النظامية للكتيبة المعسكرة فى تلك النواحى يسبح إلينا وأعطانا رسالة لنوصلها لأحد الضباط فى الموصل.

ومن هذا المكان فصاعدًا كانت القرى العربية واليزيدية تنتشر على يمين ويسار النهر، كانت منازل العرب عبارة عن أكواخ من الحصير يطلقون عليها (صريفة)، وخيام من الوبر الأسود. أقمنا ليلتنا هذه أمام قرية عربية على مقربة من جبل (بوطمة)، وعلى الرغم من أننا أردنا شراء البطيخ من البساتين الموجودة بالقرية؛ فإن أصحابها لم يبيعوها لنا بحجة أنها لم تنضج بعد، وسبح أحد الأطفال العرب فى النهر إلى البساتين الموجودة على الضفة الأخرى، واستطاع دفع بطيختين بصدره عبر النهر حتى جلبهما إلينا، فى الحقيقة كانت غير ناضجة، ولكننى أكرمت الطفل بخمس عشرة بارة، ولم نتناول من البطيخ شيئًا.

وتحركنا من مكاننا صباح يوم السبت الموافق الحادى والعشرين من شهر سبتمبر، وبعد أن قطعنا ساعتين فى الطريق رأينا بناءً مقببًا يبدو أنه قبر فى مكان مرتفع من جبل بوطمة يطل على النهر، أخبرنا الملاح محمد أنه قبر سيدنا بلال الحبشى، لم يكن الوقت يسمح بزيارته، وبعد ساعة اضطررنا للتوقف مرة أخرى أمام قرية (بابنيت) بسبب هبوب الرياح، كانت قرية تركمانية كبيرة نسبيا بها منازل مبنية بالحجارة، وأتى لمقابلتنا شيخ هرم فى الثمانين من عمره يدعى زينل أغا ابن حيدر أغا، وأخبرنا بتلك المعلومات عن أحوال تلك النواحى.

«من هنا وحتى الموصل برا ثمانى وأربعون ساعة، ولا يوجد هنا قرى تركمانية سوى قرية (بابنيت) ومن جزرة وحتى هنا توجد سبعون قرية (يزيدية) بخلاف العديد من القرى العربية، وفى كل عام فى موسم الفتحة نسمع صدى دوى طلقة

مدفع من المكان المعروف باسم مقام بلال الحبشى، حيث تهتز كل القرى من صدى دوى المدفع، وطبقًا لما قمنا به من تجربة فإن الجهة التى يطير نحوها دخان من المدفع تكون بلا بركة أو ينتشر بها المرض فى هذا العام، ويوجد ثقب فى الصخرة التى يخرج منها الدوى والدخان، وعندما كنا ننتقل إلى هذا الثقب بعد سماع صوت طلقة المدفع كنا نرى فوهة الفتحة قد اسودت ونشم رائحة بارود منها ".

وبعد أن سمعنا تلك الحكاية الغريبة من زينل أغا ودعناه، وعلى الرغم من أننا تحركنا من هناك فى تمام الساعة الثامنة، فإن مجرى النهر فى المكان الذى يعلو قرية بابنيت كان مجرى صخريا يصعب المرور خلاله، كما أن الريح اشتدت، ولم نتمكن من التقدم سوى ساعة واحدة فقط، وقضينا ليلتنا فى المكان الذى توقفنا فيه، ولأننا كنا نبيت فى النواحى العليا للمكان الذى يطلقون عليه الموصل القديمة؛ فإننا ـ وفق الحسابات التى أجريناها ـ كنا سنصل إلى الموصل فى اليوم التالى، وعلى هذا كان بيننا وبين الموصل القديمة خمس ساعات، وبذلك نصل إلى الموصل الجديدة، أو بالمعنى الصحيح كانت الرحلة بالكلك فى هذا الموسم شيئًا جميلاً.

وعلى الرغم من أننى شعرت بأن الكلك تحرك من المكان الذى نقف فيه فى تمام الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى، فإننى لم أنهض من سريرى، وبعد خمس دقائق نهضت من السرير إلى سقف الغرفة ولكننى سقطت على السرير مرة أخرى، كان علينا المرور من عدة مضايق، وسبحت عدة قرب فى المياه ونزل أحد الملاحين المياه وجمعها، ومع حلول الساعة الخامسة وصلنا أمام القرية العربية المسماة (الموصل القديمة)(١) وهذه المدينة القديمة هى مدينة (الحديثة) التى بنيت فى عهد عمر بن الخطاب (رضى الله تعالى عنه). للمدينة قلعة متينة ومستحكمة ولكنها متروكة، وعلى الرغم من رؤية أطلال المدينة القديمة على ضفتى النهر؛ فإنها عبارة عن بقايا حوائط عادية.

---

(١) الموصل: هى مركز محافظة نينوى تشتهر بالتجارة مع الدول القريبة مثل: سوريا وتركيا. (المترجم)

وفى تمام الساعة التاسعة رأينا اثنين من الجنود الخيالة على الضفة اليسرى من النهر، نادوا على قاربنا، وقالوا إنهم يتجولون هنا منذ يومين فى انتظارنا، ولأننا لم نتمكن من الرسو على الشاطئ فى هذا المكان، أخبرناهم بأننا سنعود، وتابعنا مسيرنا بالكلك، تقدمنا فى المياه ساعة تقريبًا، ورأينا على الضفة اليسرى للنهر بناء مثلث الشكل أساسه بالكامل داخل المياه وعلى هذا الأساس اصطفت الأحجار الرخامية الضخمة التى كان يبلغ طول الواحد منها ذراعين تقريبًا. فى الحقيقة إن مسألة نقل مثل تلك الأحجار لم تكن بالشىء السهل، ولم أستطع أن أحدد ماهية هذا البناء ولا فى أى عصر بنى. تقدمنا فى المياه قليلاً وبدأت رائحة سيئة تنتشر فى المكان، وبدأنا نعرف أنها رائحة الكبريت عندما اقتربنا منها، ورسونا على الشاطئ وقضينا ليلتنا هناك، ولكننا كنا نتعذب من رائحة الكبريت التى كانت تملأ المكان، أما الضفة الأخرى من النهر ،حيث الموصل القديمة ، فكانت آهلة بالقرى العربية.

وقبل شفق صباح يوم الاثنين الموافق الثالث والعشرين من شهر سبتمبر تحركنا من هناك ومررنا بقرية (حميدات)، الواقعة على الضفة اليمنى للنهر، ويوجد بها منبع للمياه المعدنية، وبعد ساعة أخرى مررنا بقرية (قره قيون) الواقعة على الضفة اليسرى، وهى قرية كبيرة نسبيا تشبه القصبة، وإلى الأمام قليلا رأينا خيمتين فى المكان المسمى (رشيدية) على الضفة اليسرى للنهر، ولأننا تلقينا أخبارًا بأن مدير الديون العمومية بالموصل خرج لاستقبالنا، فقد رسونا على الشاطئ، ونزلنا إلى البر، كانت الخيام لإسماعيل بك السليمانى بيكباشى الموصل، استقبلنا إسماعيل بك فى خيامه وأكرمنا، وقام بإرسال الكلك إلى الموصل من هناك، أما نحن فقد ذهبنا عبر الطريق البرى مع مدير الديون العمومية، ووصلنا إلى الموصل فى ساعتين.

تقع مدينة الموصل على الضفة اليمنى لنهر دجلة، وهى مركز الولاية وبها ما يقرب من خمسين ألف نسمة، ويقع جزء كبير من المدينة داخل القلعة، وأمام أحد أبواب القلعة التى تفتح على النهر يوجد جسر خشبى يوصل ضفة النهر بضفته الأخرى، وترسو القوارب القادمة إلى الموصل عند هذا الجسر الخشبى، وعلى

هذا فإن الزوار القادمين إلى الموصل من الطريق البرى أو من الطريق النهرى يدخلون الموصل من عند هذا الجسر، وبمجرد الدخول إلى المدينة يرى ميدان صغير مزدحم للغاية، يعد هذا الميدان بمثابة سوق المدينة، والمقاهى هناك أكبر الحوانيت الموجودة بهذا السوق، وهى مزدحمة فى كل وقت، حتى حائط القلعة تنتشر عليه المقاهى من أوله إلى آخره، أما بقية الحوانيت الموجودة بالسوق فهى صغيرة لدرجة أنها لا تستوعب إلا صاحبها فقط، وبالتالى فإن ما بها من بضائع أشياء صغيرة أيضًا، وأكثر الأشياء مبيعًا فى تلك الحوانيت الصغيرة هى تلك العمامة الكبيرة التى يلفها أصحاب الحوانيت على رءوسهم، لدرجة أن قيمة تلك العمامة فى بعض الأوقات قد تزيد عن قيمة كل ما هو موجود بالحانوت.

وبمجرد الدخول إلى هذا السوق يجد الداخل إليه الأصوات عالية، وسوء الأخلاق التى يتعامل بها الأهالى مع بعضهم البعض؛ لدرجة أننى ظننت أنهم يتشاجرون عندما سمعت صياحهم والإشارات التى يفعلونها بالأيدى والأذرع أثناء البيع والشراء، وقد ترددت فى العبور من بينهم، وقلت لمدير الديون العمومية الموجود بجوارى: «يا ليتنا لا ندخل فى تلك المشاجرة» فابتسم المدير وقال: «إن هذه ليست مشاجرة، ولقد اعتادوا على ذلك مع بعضهم البعض أثناء البيع والشراء».

وإلى الأمام من النقطة التى ينتهى عندها جسر الموصل عند الضفة الأخرى كان يوجد جسر آخر أكبر حجمًا، وأعلى ارتفاعًا من هذا الجسر الخشبى، ولكنه على البر، فسألت عن سبب وجود مثل هذا الجسر القوى المحكم على البر، فعلمت أن المياه عندما تفيض تغرق كل الأماكن المستوية التى ترى على الضفة الأخرى من النهر، ولأن هذا يسبب صعوبة فى السير والعبور فقد أنشأ نامق باشا هذا الجسر أثناء ولايته لبغداد؛ ليسهل حركة العبور والسير أثناء الفيضان.

أما مقر الحكومة فهو بناء كبير من الخشب أنشئ على ضفاف نهر دجلة خارج المدينة، ولأنه يستوعب دوائر الحكومة كلها؛ فإن ما بقى من غرف خصص لحريم الولاة، وقد أنشئ هذا المقر فى عهد الوالى محمد باشا البيراقدار، وعندما ذهبت إلى الموصل توجهت على الفور إلى مقر الحكومة، والتقيت بالوالى

تحسين باشا، وقد سعدت جدا؛ لأننى التقيت هناك بأصدقائى القدامى الذين كانوا يعملون موظفين للحكومة هناك، وهم: حمدى بك متصرف المركز، والكاتب مختار بك، ونظيف أفندى الدفتر دار، ومفتش العدلية حافظ رشدى أفندى، ورئيس المحكمة الابتدائية الجزئية ناجى أفندى.

دعانى الوالى الباشا لتناول طعام الغداء معه، ثم خرجت من مقر الحكومة، وبعد أن التقيت بالباشا القائد أسست خيمتى على ضفاف النهر فى المكان الذى يتوسط مقر الحكومة والمدينة. ولأن قاربنا قد سار من ديار بكر وحتى الموصل فقد انتهت أعماله هنا، وأوصيت بصنع كلكين جديدين بعشر ليرات لنقلنا من هنا إلى بغداد، ولأن الغرفة التى أمرت بصنعها فى الكلك القديم الذى أمرت بصنعه فى ديار بكر كانت من مالى الخاص وهى ملك لى فقد أمرت بإخراجها من الكلك القديم ووضعها على الشاطئ حتى أضعها فى الكلك الجديد.

وفى اليوم التالى لوصولى للموصل ذهبت للحمام، كان حمامًا عاديا من الحجر الأسود والحصير الأسود أيضًا، ولأنه لم يكن به نوافذ كثيرة، ومعظمها فى أعلى الحمام؛ فقد كان معتمًا ويبدو وكأنه سجن، أما المدلكون فهم من العربان ذوى اللحى الكثيفة، وقد قام المدلكون بوضع الماء فى إناء وغسل رأسى أولاً، ثم صبَّ الماء على جسدى وغسله بالصابون ثم وضع الشبة، ولأن من عادات العرب أن يضربوا على الظهر أثناء الاستحمام بسوط خفيف؛ فقد وضعت الماء على جسدى وخرجت من غرفة الاغتسال؛ لأن هذه الأصول لم ترقنى، وأثناء جلوسى حتى أجف طلبت نارجيلة وقهوة، فنظر عمال الحمام إلى بعضهم فى حيرة، وأحضروا لى مروحة موقد بدلاً من النارجيلة والقهوة.

وبعد أن خرجت من الحمام تجوَّلت فى المدينة، والتقيت شيخًا من الصالحين يدعى الشيخ محمد أفندى شيخ الجامع الكبير، كان شيخًا مباركًا وحسن الصحبة.

وبالنسبة لمنازل المدينة فكانت من الحجارة، وتوجد بعض المنازل المتينة المنتظمة صُنعت أبوابها ونوافذها من الرخام، ويلف الأثرياء من أهالى الموصل عمامة خفيفة على الطربوش، ويرتدون جلبابًا أو جبة وبنطالاً، أما متوسطو

الحال منهم فيلفون كوفية من الحرير الأصفر على رءوسهم، ويرتدون المشلح، أما الفقراء فيضعون على رءوسهم عقالا ومنديلا ذا مربعات باللون الأبيض والأحمر أو الأزرق والأبيض، منسوجًا من القطن، وعلى الرغم من أن العرب ينطقون حرف الجيم مثل الكاف؛ فإن أهالى تلك المناطق ينطقون الكاف والقاف مثل الجيم، على سبيل المثال: كلمة قرية ينطقونها جرية، وكبير ينطقونها جبير؛ وباكر «باجر».

وعندما عدت إلى الخيمة أتى الباشا الوالى لزيارتى، ثم اصطحبنى إلى قصره ودعانى لتناول طعام العشاء معه، وفى يوم الأربعاء التالى أخذنى حمدى بك متصرف المركز على الدواب وذهبنا لزيارة المرقد الشريف لسيدنا يونس عليه السلام، المدفون بجوار أطلال مدينة نينوى[1] الشهيرة، الواقعة على الضفة الأخرى لمدينة الموصل، وقد قام باحثو الآثار القديمة بالتحرى والبحث فى تلك الأطلال القديمة لمدينة نينوى، وكان يوجد لتلك المدينة رسوم منقوشة بطريقة الحفر يطلق عليها (باره ليف) على حوائط أحد الأبنية التى بنيت من الرخام، كما كان يوجد تمثالان لأسدين من الرخام أيضًا، ولم يكن هناك أى شىء آخر بخلاف تلك الأشياء، ولم تجر أية حفريات أو أبحاث فى القسم الأكبر من هذه الأطلال الواسعة للغاية، وفى الجهة المقابلة لقرية نينوى كانت توجد قرية تسمى (بعورة)، وبعد تلك الزيارة عدنا للمدينة، وزرنا قبور الأنبياء العظام (شيث) و (دانيال) و(جرجيس)، ولأنه كان من المقرر تحركى من الموصل فى اليوم التالى فقد ذهبت لمقر الحكومة بعد تلك الزيارة، وقمت بتوديع الوالى، وتشرفت بمعرفة عطاء الله أفندى ابن الكواكبى الذى خلع من متصرفية السليمانية، وأتى للموصل فى هذا اليوم؛ لأنه كان على وشك العودة إلى إستانبول.

وفى تمام الساعة الثالثة من يوم الخميس الموافق السادس والعشرين من شهر سبتمبر ودعت أحبائى، وتحركت من الموصل بالكلكين الجديدين.

---

(١) مدينة نينوى: مدينة قديمة أسسها سين ـ أههى ـ أديبا(٧٠٤ ـ ٦٨١ق.م) تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة شرق جنوب مدينة الموصل، وهى بلد نبى الله يونس عليه السلام وبلد عداس أول صحابى أسلم بالنبى (ص) من خارج الجزيرة العربية. (المترجم)

كان الكلك الواحد بقوة مائة وخمسين قربة، ولأن القرب كانت جديدة فقد كانت تلك أكبر من الكلك القديم بضعفين، ونظرًا لأن بغداد لم يكن بها أخشاب، وكانت الأخشاب تجلب من تلك النواحى؛ فقد أحضر عمال الكلك القليل من الأخشاب معهم ليبيعوها فى بغداد، وكانوا يفرشونها على أرضية الكلك بدلاً من القش وبذلك استفدنا بها خير استفادة.

وبعد أن أبحرنا من الموصل رأينا عدة أشجار نخيل فى المنطقة التى تلى مقر الحكومة، ولم يكن النخيل ـ تلك الشجرة اللطيفة ذات الفاكهة اللذيذة الخاصة ببلاد العرب ـ كثيرًا فى نواحى الموصل، وعلى طول ضفتى النهر فى المنطقة التى تلى الموصل كانت تنتشر الكثير من صريفات وخيام العرب، وبخلاف القرى العربية كانت ترى فى بعض الأحيان القرى الكبيرة ذات الأبنية الحجرية، وتنتشر زراعة البطيخ والعجور بكثرة على ضفتى النهر، والعجور عندهم كبير الحجم للغاية.

ومن الأشياء الجديرة بالتعريف هنا: سواقى المياه التى يستخدمها العرب هنا لرى حقولهم، وهى على ما يلى: يقومون أولاً بإنشاء بئر من الحجر تكون على شكل دائرى، وأحيانًا على شكل نصف دائرى، وتبدأ من مجرى النهر، وتكون هذه البئر مرتفعة عن سطح الأرض قليلاً، وفى حائط هذه البئر الموجودة ناحية البر أى فى الناحية الخلفية للبئر يقومون بحفر التراب ويجعلون منحدرًا خفيفًا بطول ثمانية أو عشرة أذرع، وتكون الرأس العلوية لهذا المنحدر بمحاذاة ارتفاع البئر، أما الناحية السفلية من المنحدر فتكون داخل التراب، ويضعون عند فم هذه البئر– التى تشبه البرج – شجرة تكون بمثابة المدخل، ويربطون على هذه الشجرة من بكرة إلى ست بكرات على حسب مساحة الأرض التى ستروى، ويعلقون على كل بكرة من هذه البكرات قربًا ضخمة من جلد البقر أو الضأن، ويربط فى كل قربة منها فرس أو ثور، ولأن طرف الحبل يكون مربوطًا فى الحيوان فإنه عندما يصعد عند رأس المنحدر تنزل القربة إلى المياه فتمتلئ، وعندما يعود إلى نهاية المنحدر تفرغ القربة ما بداخلها من ماء، ومن العادة عند العرب احتساب كمية الأراضى المزروعة بعدد القرب الموجودة بساقية المياه على سبيل المثال يقولون

«حقل فلان كذا بكرة»، وعند سحب تلك البكرات المياه تحدث صوتًا رقيقًا وسريعًا كخفقان الطيور أو كصوت بكرات السفن، ومن الغريب أن أصواتها ونغماتها كلها واحدة.

وكما أن رائحة منابع الكبريت الموجودة بقرية (الحميدات) السابق ذكرها، والواقعة أعلى الموصل، تهب على الموصل مع الرياح الغربية، تهب أيضًا رائحة الكبريت للمنطقة المعروفة باسم (حمام على) أو (حمام العليل) الواقعة أدنى الموصل مع الرياح الشرقية؛ لذا فإن رائحة الكبريت لا تنقطع من الموصل أبدًا، وقد مررنا من أمام حمام على هذا فى تمام الساعة الثامنة، وكان حمامًا يشبه فى بنائه الحمام الذى رأيناه فى منطقة بهتان، ولم يكن بتلك المنطقة أية أبنية أثرية سوى الحمام، ولأن الكثير من المرضى يضطرون لجلب زادهم وذخيرتهم ويقيمون تحت الخيام فى هذا المكان يأكلون الخبز الجاف؛ فقد فهم أنهم يرضون بهذا الوضع الحقير الذى يتعرضون له فى سبيل شفائهم.

وعند المساء وصلنا المكان المعروف باسم (جسر النمرود)، فى الحقيقة لم يكن هناك وجود لهذا الجسر، ولكننا رأينا أساسًا لحائط مبنى فى المياه من ضفة النهر الأخرى، وأغلب الظن أنه عبارة عن أطلال لسد بنى من أجل رفع المياه لرى الأراضى، وقد تشكل شلال صغير بارتفاع ذراع بسبب قلة المياه فى هذا الموسم، مررنا من هناك بصعوبة من بين الأحجار، وتقدمنا مقدار نصف ساعة ثم رسونا جانبًا لقضاء الليل، وقد أصابتنى وعكة صحية شديدة فى تلك الليلة.

تحركنا فى الصباح الباكر، وسرنا إلى الأمام مسافة ساعتين حتى وصلنا مكانًا يسمى (عوينة)، وهناك كان يوجد شلال مثل الموجود عند جسر النمرود، ولأن هذا الشلال كان أخطر من السابق فقد أرسينا الكلك على الشاطئ وأنزلونى على البر وأنزلوا معى بعض الأمتعة، وفى المساء تعرضت لوعكة صحية ثانية، ولأننى لم أستطع السير حملنى أحد عمال الكلك على ظهره، وأحضرنى إلى المكان الذى أرسوا فيه الكلك بعد الشلال.

فى الواقع كان مكان الممر المائى مرتفعًا للغاية، وبمجرد أن تدخل القوارب فيه تعبر بعد أن تنقلب رأسًا على عقب، وفى تلك الأثناء سقطت فى الماء زجاجة ماء

معدنى، ووعاء كان الطاهى قد وضعه على الموقد، والحمد لله أنه لم يصب أحد منا بأذى.

وفى الساعة الخامسة لمسيرنا عبرنا من المكان الذى يصب فيه نهر الزاب(١) الموجود على الضفة اليسرى فى مياه شط العرب، وفى الساعة التاسعة والنصف مررنا من أمام قرية (سلطان عبد الله) الواقعة على الضفة اليمنى، وفى الساعة الحادية عشرة لمسيرنا مررنا من أمام قرية منكوبة، وبعد الغروب مررنا من أمام قرية كبيرة تسمى (جبر)، كان السلطان عبد الله المذكور من الأولياء الصالحين، ويمكن رؤية قبره فى مكان مرتفع من القرية، وكان مجرى نهر شط العرب مليئًا بالصريفات العربية والخيام، والكثير من منابع المياه المعدنية الكبريتية، وبعد الغروب شاهدت القمر بازغًا، فقد كان يوم السبت التالى هو غرة شهر المحرم لعام ١٣٠٢هـ، لم نتوقف لتناول الطعام، فقد تناولنا الطعام فى الكلك ونحن نتابع سيرنا، وفى تمام الساعة الثالثة صباحًا توقفنا على الشاطئ وقضينا الليل هناك.

وفى صباح اليوم التالى تحركنا باكرًا، ومررنا أمام القرى الكثيرة التى تنتشر على طول ضفتى النهر، وفى تمام الساعة التاسعة والنصف وصلنا لمركز يسمى (قلعة شركات) يقع على الضفة اليمنى للنهر، يتبع الموصل، كانت القلعة بناءً ذا أربع زوايا على شكل الخان، وكان به عدد من الجنود، وبعد ذلك مررنا من أمام قرية كبيرة تسمى (خانوقة)، وبعد ذلك لم نر شيئًا ، وسرنا حتى الساعة الثالثة صباحًا.

وفى اليوم التالى الموافق الأحد، مررنا من المكان الذى يصب فيه نهر الزاب الصغير بنهر دجلة، ولأن هذا النهر كان يمر من قضاء (آلتون كوبرو) (٢) الواقع بكركوك كان يسمى أيضًا (نهر آلتون كوبرو)، وبعد ساعة رأينا جبل (حمرين)،

---

(١) نهر الزاب: الزاب نهر تقع منابعه فى شمال غربى إيران ويمتد لمسافة ٤٠٢٠ كم داخل العراق، يعتبر من الروافد المهمة لنهر دجلة يصب فى نهر دجلة شمال مدينة بيجى بعد مروره بمنطقة آلتون كوبرى، وهو من أهم الموارد المائية فى منطقة كركوك، حيث تعتبر مياهه مصدرًا مهما لمياه الشرب أطلق عليه السومريون اسم (زابو شيالو). (المترجم)

(٢) آلتون كوبرو: قصبة فى لواء كركوك واقعة بين جسرين قائمين على فرعى الزاب الصغير الذى يقال له أيضًا الزاب الأصغر، وآلتون كوبرو مدينة وادعة تقع إلى الشمال الغربى من كركوك وتبعد عنها بنحو ٤٠ كم وعن أربيل بنحو ٥٠ كم. (المترجم)

وتبدأ هذه السلسلة الجبلية من الضفة اليمنى لنهر شط العرب وتمتد لمسافة ساعتين ثم تنتقل إلى الضفة اليسرى للنهر بعد ذلك، وتشكل هذه السلسلة الجبلية الحدود الإيرانية، بداية من المكان المعروف باسم (قلعة زينان) المجاور لخانقين، ثم تدخل الحدود الإيرانية بمحاذاة منطقة (العمارة)، وتنتهى هذه السلسلة الجبلية عند المستنقعات المعروفة باسم (شط الجاموس) بمنطقة الأهواز، ويطلقون على بداية القسم الواقع فى المنطقة اليسرى لجبل حمرين اسم (جبل مقحول).

وفى الساعة السادسة لمسيرنا بدت لنا على سفح الجبل أطلال مكان يعرف باسم (قلعة جبار)، وإلى الأمام قليلاً من هذا المكان كان يوجد مجموعة من القرويين العرب الذين بدءوا فى الصياح والصراخ بمجرد أن رأوا قاربنا، سألت: ماذا يريدون؟ ففهمت أنهم يطلبون العون والمساعدة؛ لأن مجموعة من أفراد عشيرة شمر قاموا بالتعدى على قراهم قبل عدة أيام، ولم يكن فى مقدورى فعل شيء لهؤلاء المساكين، إلا أننى وعدت بأن أراجع الحكومة بالنسبة لمطالبهم، وتابعنا مسيرنا.

وإلى الأسفل من هذا المكان كان يتوجد الكثير من منابع القطران والنفط على طول خط الساحل، حتى إن صفحة الماء كانت تبدو وكأنها مخلوطة بالزيت، بدأ جبل حمرين الذى أصبح على الضفة اليسرى للنهر منذ فترة يبعد عن الساحل، وعلى جانبى النهر كانت توجد الأراضى المنبتة التى تشبه غابات الصنوبر الخفيفة، كما أن قرى العرب بدأت تقل أيضًا، سرنا حتى الساعة الرابعة صباحًا، وكانت نيران المخلفات التى يجمعها العرب من الأراضى المنبتة ويحرقونها على الساحل من بعد المساء تنعكس فى المياه، رسونا على جانب الشاطئ، ولوجود حيوان ابن آوى بكثرة هنا لم نستطع النوم طوال الليل بسبب صياحه (آه آه آه آى) وحينما حل موعد تحركنا فى الصباح ولم نتحرك خرجت من غرفتى متعجبًا، وأردت معرفة سبب توقفنا، فعلمت أن عمال قاربنا وجدوا اثنين من العرب الذين يجمعون الحطب هنا من أهل بلدتهم فظلوا يتسامرون حتى الصباح، وكانوا يرغبون فى أن يلتزم الجميع السكون حتى يغطوا فى نوم عميق، ولكننى فعلت ضجة أيقظتهم من سباتهم، ولم نتحرك إلا فى تمام الساعة الواحدة.

تقدمنا فى المياه مقدار ساعة، وإذا بنا نرى سفينة رست على البر فى مكان يبعد عن تكريت بأربع ساعات بسبب قلة المياه. لقد سررت من رؤية هذه السفينة التى هى من آثار التمدن والحضارة فى هذا المكان النائى . لقد كنت أعرف أن السفن تبحر من البصرة حتى بغداد فقط، ولكنى لم أعرف هل كانت مثل تلك السفن تبحر حتى الموصل.

يا ترى لأية شركة كانت تابعة هذه السفينة؟ وبينما أنا أخمن هل هى ملك الإدارة النهرية، إذا بالسفينة ترفع علمها عندما رأت قاربنا، ففهمت أنها مملوكة لأمير إنجليزى، وعندما أصبحنا بمحاذاة السفينة تمامًا، أنزل القبطان صندلاً وحضر إلينا، وتحدث معنا عن الأحداث والذكريات والأحوال، لقد كان هذا المسكين الذى يقف فى مكان خالٍ بدون تلغراف أو بريد بعيدًا عن أخبار العالم يتحين الفرص لظهور قوارب قادمة إليه؛ ليسألها عن أحوال العالم، أما نحن فكنا فى النهر منذ ما يزيد على عشرين يومًا، ولم تكن عندنا أية أخبار جديدة له.

وقمت أنا أيضًا بالاستفسار منه عن السفينة فعلمت منه أن السفينة تابعة لأسطول الهند، واسمها (قومت)، وأنه موظف فى معية الجنرال قنصل بريطانيا فى بغداد، وأنه تحرك بهذه السفينة من بغداد فى الربيع مستفيدًا من كثرة المياه، وعندما وصل إلى هنا قلت المياه فجأة فاضطر للوقوف هنا، وأنه ينتظر فيضان الماء حتى يعود إلى بغداد، كان القبطان شخصًا قوى البنية ذا شكيمة، وجهه أحمر، ولحيته كثيفة، ومن الواضح جدا أن بقاءه هذه الفترة - التى تقترب من الخمسة شهور - فى هذا المكان بلا عمل كان مفيدًا له لما فيه من تغيير الجو والراحة، كان لا يعرف سوى الألمانية والإنجليزية، قمنا بوداعه واستكملنا مسيرنا.

كان برفقتى كاتب من ديار بكر وخادم لا يعرفان شيئًا قط من شئون البحرية والمراكب؛ فقد كانوا ينظرون للسفينة فى حيرة تامة عندما كنت أتحدث مع القبطان، حتى إننى بعد أن ودعت القبطان جلسوا بجانبى وقالوا لى: بأى شىء تسير تلك السفينة؟ وفى أى مكان منها تشعل نيرانها؟ وأى غرفة منها قمرتها؟ وما هذا اللوح الخشبى الحاد الموجود فى مؤخرتها؟ وهل تسير مثل الزورق؟ وكيف تجعل الماء ينهمر خلفها؟ وقد أجبتهم عن تلك الأسئلة فى ساعة كاملة.

وفى تلك الأثناء بدا لنا بناء على شكل الضريح فى مكان يرتفع قليلاً على الضفة اليمنى للنهر، كان هذا القبر هو ضريح (الإمام كريم)، وهو مزار مشهور، وعلى الرغم من أننا بدأنا نرى القرى العربية تظهر من جديد كلما اتجهنا لأسفل؛ فإنها لم تكن متاخمة لبعضها البعض مثل الموجودة بجوار الموصل، ولأن حقول تلك القرى لم يكن بها سوى الذرة فإن معظم الأهالى كانوا لا يخافون من العصافير، ومع هذا كان يوجد بكل حقل كوخ مرتفع قليلاً مصنوع من القش والحطب.

يقف على هذا الكوخ أحد العريان من الصباح وحتى المساء ليبعد الطيور عن الحقل.

مغارة سعدو

وعندما أصبحت تكريت على مسافة ساعة ، رأينا مكانًا يشبه المغارة على الضفة اليمنى، وحينئذ حمل الجنود الذين معنا بنادقهم وتسلح عمال الكلك بالطبنجات القديمة، وأخذوا وضع الاستعداد لإطلاق النار، فقلت لهم: ما الخطب؟ فقال أحد الجنود: إن هذا المكان مكان ملعون يسمى مغارة سعدو، وسعدو هذا جن ضار يسكن تلك المغارة، وإذا ما عبر أحد الأشخاص من هنا ولم يطلق النار على المغارة تنصب على رأسه المصائب والكوارث، فقلت لهم: وماذا كان الوضع قبل اختراع البارود؟ هيا تخلوا عن تلك الخزعبلات، ولا تضيعوا البارود الذى معنا هباء، فربما لا نتمكن من إيجاد بارود آخر غيره فى الصحراء، ومنعتهم من إطلاق النار، وبعد نصف ساعة هبَّت عاصفة قوية من الصحراء، كانت قوية لم أر مثلها فى حياتى، كانت الريح تسير مثل الجواد المسرع، استطعنا أن نصل للشاطئ بصعوبة، وربط العمال الكلك فى الشاطئ ثم هرولوا إلى الساحل وألقوا بأنفسهم على الأرض وغطوا أنفسهم بالعباءات التى يرتدونها، وظلوا هكذا لا يستطيعون رفع رءوسهم، استمر هذا الوضع عشرين دقيقة، ثم سكنت الرياح، ولكن الأمواج التى ارتفعت بسبب شدة الريح قذفت بالكلك لمسافة متر على الساحل وأرسته على الحصى، وغطت الرمال الرجال الموجودين على الأرض فكانوا يبدون وكأنهم مدفونون، أما غرفتى فى الكلك فقد امتلأت هى الأخرى

بالرمال، أنزلنا الكلك فى الماء ثانية بصعوبة كبيرة، وظللنا ساعة كاملة نزيل الرمال منه، وعندما كنت أغسل وجهى إذا بلحيتى تنزل طينًا من الغبار الذى كان عالقًا بها، وكانت تتعقبنا فى النهر كلك أخرى تحمل بضائع، تحطمت هذه الكلك، وسقط منها ما يزيد عن عشرين جوالاً من القمح فى النهر.

وبعد أن استقرت الأمور وبدأنا نسير بدأ النزاع بين عمال الكلك وجنود الضبطية، وأوصلوا طرف النزاع لى أيضًا؛ فقد حدثت تلك الرياح الشديدة من جراء سعدو؛ وذلك لأننى لم أسمح بإطلاق النار.

ومن المفارقات الغريبة أن حدوث تلك العاصفة القوية أثناء العبور من عند مغارة سعدو كان قد قوى تلك الأفكار والمعتقدات عند عمال الكلك والضبطية، ومهما قلت لهم ومهما أحضرت لهم من دلائل فلن يقتنعوا بكلامى، بل إنه لن يؤثر حتى على معتقداتهم، واللافت للنظر هنا أنهم سوف يروون هذه الحكاية فى أى مكان نذهب إليه، وبالتالى سيدعمون تلك الأفكار عند من يؤمن بسعدو هذا، بل سيتخذوننى شاهدًا على ذلك، وعندما أردت أن أدافع عن نفسى قائلاً لهم: لماذا إذًا تحطمت الكلك التى كانت تتعقبنا على الرغم من أنها أطلقت النيران على المغارة؟ لماذا تحطمت وتضررت أكثر منا؟ رد علىّ أحد عمال الكلك وهو يصيح لقد لاقت هذه الكلك نفس مصيرنا، وفهمت منه أننى السبب فى هذه الخسائر التى حدثت للكلك.

تكريت(١)

وصلنا تكريت فى تمام الساعة الحادية عشرة، وهى من أقدم المدن العراقية التاريخية المشهورة، تعد مركزًا لناحية صغيرة داخل قضاء (سامراء) التابعة اليوم لبغداد، منازل المدينة من الآجر، كنا نرى بجوارها قلعة قديمة مهملة وعددًا من أشجار النخيل، ولأن معظم ساكنيها وفدوا من مناطق أربيل وكركوك فإنهم يعرفون اللغة التركية، أتى إلينا موظف شركة الدخان والتقى بنا، ولم نر وجهه

---

(١) تكريت: مدينة فى العراق تقع على مسافة ١٦٠ كم شمال غرب بغداد على نهر دجلة، وهى محافظة صلاح الدين ولد فيها صلاح الدين الأيوبى. (المترجم)

بعد ذلك، وأغلب الظن أنه أتى للتحرى عن الدخان، ولكنه لم يتجرأ على أن يفصح لنا بذلك، وأظهر لنا أن زيارته هذه عادية، وعندما توقفنا هنا قام أحد المرافقين لنا بصنع الشاى، وبينما كان يصنعه إذا بالموقد ينطفئ، وأصبح الكلك على وشك النزاع مرة أخرى، حيث حملوا ذلك على سعدو مرة أخرى، ولكنى لم أستطع التدخل بينهم.

تحركنا من تكريت فى تمام الساعة الخامسة مساءً، وفى تمام الساعة الثانية عشرة من يوم الأربعاء التالى مررنا من أمام قرية (دور) الواقعة على الضفة اليسرى للنهر.

وكان يرى فى القرية جامع بمئذنة وبناء أو بناءان مقببان، أحد تلك الأبنية المقببة هو ضريح الإمام محمد الدور ابن السيد كاظم، ولعل هذا هو السبب فى تسمية القرية بقرية الدور، وبجانب القرية كان يوجد غابة صغيرة بها ما يقرب من ثمانى أو عشر أشجار نخيل، وقد رأيت قبل ذلك شجرة نخيل فى الموصل، وبالأمس رأيت واحدة أو اثنتين فى تكريت، واليوم رأيت مجموعة من أشجار النخيل هنا.

سامراء[1]

وعلى مسافة نصف ساعة إلى الأمام وعلى الضفة اليسرى للنهر، بدت أطلال مدينة (سامراء) التى كانت آهلة فى عهد الخلفاء العباسيين، والتى يطلق عليها بغداد القديمة، والمكان من هنا وحتى سامراء - وهى مسافة تقدر بعشر ساعات تقريبًا - كلها أطلال تنتشر على طول ضفتى النهر وحتى الصحراء، ويستدل من تلك الأطلال على صحة الأخبار الواردة فى الكتب التاريخية عن مدى جسامة مدينة بغداد القديمة، وأنها كانت تضم ما يقرب من أربعة ملايين نسمة، وإلى الأمام قليلا رأينا حوائط كبيرة لا تزال قائمة حتى اليوم، والأطلال الموجودة كلها

---

(١) سامراء: مدينة عراقية تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة فى محافظة صلاح الدين وتبعد ١٢٥كم شمال العاصمة بغداد، يحدها من الشمال مدينة تكريت ومن الغرب الرمادى ومن الشرق بعقوبة. (المترجم)

عبارة عن أبنية من الطوب الأصفر العادى، وعدم وجود أى آثار من الرخام أو أى أنواع أخرى من الأحجار وخاصة الفنون المعمارية؛ جعل الأفكار التى فى رأسى عن اشتهار الخلفاء العباسيين بالقوة والعظمة تقوى، وعندما أخبرنى عمال الكلك بأننا نقترب من مدينة سامراء، رسمت فى مخيلتى أفكارًا وصورًا عن تلك المدينة العظيمة، ولكنها زالت عن ذهنى كرغوة الصابون بمجرد أن رأيت تلك الأطلال.

وفى مكان قريب من سامراء على الضفة اليمنى للنهر توجد قلعة باسم (قلعة عاشق)، أما على الضفة اليسرى فتوجد أطلال قصر مسدس الشكل باسم (قصر معشوقة)، وقد أصبحا سببًا لسرد المارين من هنا الحكايات عنهما، ومن ذلك أن أحد الأمراء أحب ابنة أحد الأمراء، ولأنه فقد الأمل فى إتمام الزواج من تلك الأميرة، قام ببناء قلعة على الضفة الأخرى من النهر فى المكان المواجه للقصر، ومن هنا بدأت المخاصمة، وتقول رواية أخرى إن أحد الفقراء أحب جارية كانت مملوكة ومحبوبة لأحد الكبراء، فقام الرجل ببناء القلعة فى الجهة المقابلة للقصر حتى لا يتجرأ الرجل الفقير على الوصول للجارية .

وصلنا سامراء الساعة العاشرة، وعلى الرغم من أنها كانت مركز القضاء؛ فإنها كانت عبارة عن قرية بها ما يقرب من مئة أو مئتى منزل، وهى محرومة من التجارة والصناعة وحتى الزراعة، ولأن سامراء تعد من أكبر المزارات الشيعية لوجود قبور الإمام على الهادى وابنه حسن العسكرى، وأخت على الهادى السيدة حليمة، وزوجة الحسن العسكرى السيدة نرجس؛ يفد إلى المدينة كل عام زوار كثيرون؛ لذا فإن أهالى سامراء يتعيشون على فضلات هؤلاء الزوار وما يتبقى منهم من طعام، حتى إننا عندما أرسينا قاربنا ترك مجموعة من الحرفيين حوانيتهم وهرعوا إلينا مادين أيديهم لنا بالسؤال.

وفى الوقت نفسه الذى نجد فيه أهالى المدينة على هذه الحالة من الفقر، نجد القبور المدفون بها هؤلاء الأئمة المذكورون مزينة للغاية، وهو ما يجعل هناك تضادًا غريبًا، فالقبر الواحد يبدو وكأنه جامع كبير، وغطيت القبة بأكملها

بالذهب بدلاً من الرصاص، حيث يرى ضياء تلك القبة كالشمس من على مسافة عدة ساعات، وقد ازدانت تلك القبور بأروع الزينات الهندية والإيرانية، وكانت زيناتها تدعو للحيرة والدهشة، وبجوار قبر الإمام على الهادى يوجد جامع شريف بنفس حجم الضريح، وقد زينت قبة الجامع وحوائطه الخارجية بقطع القاشانى مختلفة الألوان، ويوجد بالجامع بئر يقال إن الإمام المهدى اختفى فيها.

وبعد زيارة الجامع خرجت للقصبة وتجولت بأطلالها ورأيت أطلال (جامع الجمعة) الذى بناه الخليفة المعتصم بالله، كان هذا الجامع كبيرًا لدرجة أنه يستوعب عشرين ألف شخص بلا مبالغة، والجامع كان عبارة عن أربعة حوائط مكشوفة مبنية بالآجر، وهى قائمة حتى الآن، وبالقرب من الجامع توجد مئذنة تشبه البرج الحلزونى ترتفع لخمسة عشر أو عشرين مترًا بدون أى شرفات، وللصعود إليها صنع طريق حلزونى حولها بدلاً من السلم.

وطوال الفترة التى كنت فيها فى سامراء كان يرافقنى قائمقام القضاء وكاتبه، تحركنا من سامراء بعد تناول طعام العشاء، وبداية من سامراء وما يدانيها من أماكن كانت القوارب التى تنقل البضائع إلى بغداد تملأ صفحة مياه شط العرب، لم نتوقف فى الليل بل تابعنا مسيرنا.

وعلى الرغم من أنهم أخبرونى بأننا قد أصبحنا بمحاذاة المكان المعروف بـ(خان مزراقجى) وذلك صبيحة يوم الأربعاء؛ فإننى لم أتمكن من حساب أو تخمين المكان الذى نحن فيه بسبب عدم وجود هذا المكان على الخريطة، وفى الساعة الثامنة وصلنا إلى مضيق (شط أدهم) ووجدت هذا الموقع على الخريطة، وبذلك فهمت الطريق الذى سرنا فيه من سامراء إلى هنا.

وبدأت القرى العربية وسواقى المياه تنتشر بكثرة على ضفتى النهر، وقد رأيت مجموعة من نساء وأطفال تلك القرى يحملن اللبن والزبد فى إناء على رءوسهن، ومنهم من يسبح فى الماء، ومنهم من يركب على جذع شجرة ملفوف عليه جلد الماعز وكأنه جواد ويستخدم رجليه كالمجداف، أتى إلينا بعض منهم ليبيع لنا من اللبن والزبد، ومعظم الأطفال يسطون على قوارب البساتين، ولدفعهم يقوم من

فى تلك القوارب بإلقاء الحجارة أو النيران عليهم، وقد رأيت فى قوارب البساتين الكثير من الحصى، وفهمت بذلك أنها سلاح يستخدم ضد هؤلاء الأطفال المسلطين عليهم، ومع ذلك لا يعير الأطفال لتلك الأسلحة أو الحجارة اهتمامًا، ولا يتركون القارب ما لم يلقِ ركابه لهم شيئًا منه.

ولأننا لم نتمكن من الذهاب بعيدًا عن شط أدهم فى ذلك اليوم بسبب الرياح؛ توقفنا على الساحل عند الأذان، وعلى الرغم من أننى أخبرت عمال الكلك بأن الريح ستستمر وذلك من خلال العلامات التى رأيتها فى ميزان الرياح وغروب الشمس؛ فإنهم لم يعتمدوا على تلك التكهنات، وساروا بالكلك ليلاً، ولكنهم صدقوا ما قلته عندما رأوا الرياح تستمر وبشدة، كنا فى منطقة تدعى منطقة (خالص) التابعة لبغداد، وعلى الرغم من أن ضوء القمر ليلاً كان لطيفًا، فإننى لم أتمكن من إخراج رأسى من الغرفة.

وفى صباح يوم الخميس تحرك الكلك وأنا ما أزال نائمًا، لقد قاوم عمال الكلك شدة الريح التى تهب منذ المساء وساروا به، وبمجرد أن فتحت عينى رأيت فأرًا يتجول على اللحاف، لم يكن هناك ثقب يدخل منه.

وعلى الرغم من أننا تمكَّنا فى الساعة الثانية من الوصول إلى قرية (سندية) الواقعة على الضفة اليسرى لنهر شط العرب، وتعد منتصف الطريق بين بغداد وسامراء؛ فإننى أدركت أننا لن نتمكن من التقدم أكثر بسبب شدة هبوب الريح، واضطررنا للتوقف هناك، وفى هذا المكان رأينا حدائق التمر المشهورة فى بغداد، وبينما كنت أنظر إلى تلك الحدائق وأنتظر سكون الريح، إذا بأحد عمال الكلك يقول: "حتى لو سكنت الريح فى المساء فإننا لن نتمكن من الوصول إلى بغداد إلا مساء يوم الأحد أو صباحه"، وعلى هذا كانت المسافة بين قرية سندية وبغداد إحدى عشرة ساعة برًا، وحينئذ فكرت بأنه من الأفضل أن أنزل للبر وأشترى الخيول، وأن أنزل فى تلك الليلة فى أحد منازل القرى الواقعة على الطريق، وبذلك أتمكن من دخول بغداد صبيحة يوم الجمعة التالى؛ ولأن أهل القرية لا يخرجون دوابهم إلا بعد دفع أجرتها؛ أعطيتهم المال، ولكن ماذا كانت تلك

الدواب؟ كانت عبارة عن حمارين وجوادين بلا سروج، هزيلين، والحمد لله أن الكلك لم يتحرك بعد، أخرجت أطقم تلك الدواب ولم أنظر إلى ضعفها وتحركت من سندية فى تمام الساعة السادسة.

وبعد أن خرجت من القرية رأيت بناءً مقببًا على الضفة اليمنى للنهر يبدو بعيدًا جدا، كان قبر الشيخ جنيد، ويقول الذاهبون إليه إن هذا القبر يمتلك خاصية يتفرد بها عن غيره من القبور، وقد تأسفت على وجود مثل هذا القبر فى الصحراء بعيدًا عن المدنية والحضارة.

وصلنا إلى قرية (الجديدة) مع أذان العشاء، وأسسنا خيامنا حول إحدى الخانات وقضينا ليلتنا هناك، ورغم شدة الريح طوال الليل فإن الطقس كان باردًا بدرجة لا يُمكن وصفها، ومن الغريب وجود مثل هذا الطقس البارد فى بدايات شهر أكتوبر فى إقليم حار مثل العراق، وصباح يوم الجمعة الموافق الرابع من شهر أكتوبر أصبت بنزلة برد ونمت، وعلى الفور أشعل المرافقون لى النيران، وبعد التدفئة، خرجنا من قرية الجديدة فى تمام الساعة الثانية عشرة، وسرنا لمسافة ثلاث ساعات بين القرى المحاطة بأشجار النخيل المتلاصقة ببعضها البعض.

وفى تمام الساعة الثالثة والنصف رأينا قبر وجامع الإمام موسى الكاظم بمآذنه الأربع الواقع على الضفة اليمنى لنهر شط العرب، والذى يبعد عن بغداد بمقدار ساعة، وإلى الأمام قليلاً بدأنا نرى على الناحية اليسرى قباب ومآذن مدينة بغداد من بين أشجار النخيل.

وكما أوضحنا فى رحلتنا فى ديار بكر سابقًا أن الذاهبين إلى بغداد تظهر عندهم بثور، وتتسمى هذه البثور باسم البلد الموجودة فيها، فيقال بثور حلب، وبثور ديار بكر، أما فى بغداد فيقولون عنها بثور النخيل، وتنقسم بثور النخيل باعتبار الذكر والأنثى إلى قسمين؛ النوع الذكرى يكون واحدًا أو اثنين ولكنه كبير، أما الأنثوى فهو عادى ولكنه صغير ومتعدد، وتظهر عند الأطفال الذين قضوا طفولتهم فى بغداد، ولا تظهر هذه البثور عند الكبار فى وجوههم، بل تظهر على

أيديهم وأرجلهم، وأحيانًا تنتشر فى الوجه فتكون عند الجبهة وعلى حافة الفم أو على أرنبة الأنف، ولا تكون لتلك البثور آلام شديدة مثل باقى أنواع البثور، ولكنها عندما تظهر على الجسم تبدأ بالحكة، ثم يتحول لون الجلد فيها إلى الاحمرار كلون البصل، ثم يتفتح الجلد شيئًا فشيئًا حتى تصبح بمثابة الجرح، ولا يوجد لتلك الجروح علاج سوى تطهيرها مرتين فى اليوم على الأقل، ودهنها ببذر التيام، وتستمر فترة علاجها مدة معلومة ولا تبرأ إلا بعد انقضائها، إنها شىء كريه، وبالتأكيد لا يرغب الإنسان فى ظهورها فى الوجه أو فى أى مكان آخر ظاهر.

وأى شخص يذهب إلى بغداد عندما يراها من بعيد لأول مرة يكون فى حيرة وشك من أنه إذا ما حرَّك أى عضو من أعضاء جسده فإنه سيصاب بتلك البثور، وقد تذكرت تلك الرواية بعد تحركنا من الجديدة، وسواء كان ما سمعته استهزاء أو حقيقة قمت دون أن أشعر بتحريك ذراعى اليسرى مخافة إصابة عضو من جسدى بتلك البثور.

ظللت أحرك ذراعى ثلاث ساعات ونصف، وعندما أردت التخلى عن هذا الأمر بعد أن رأيت بغداد، كنت أحرك ذراعى بين الحين والآخر حتى المساء وكأننى اعتدت على ذلك، ثم توقفت عن تحريك ذراعى اليسرى، وبعدها بشهرين ظهرت البثور فى ساقى اليمنى.

الأعظمية[1]

وصلنا قصبة الأعظمية الواقعة على الضفة اليسرى من النهر فى تمام الساعة الرابعة والنصف، وتنتسب هذه القصبة للإمام الأعظم (أبى حنيفة النعمان) لأنه مدفون بها، ولأننا دخلنا الأعظمية من جانب نهر دجلة فقد كان

---

(١) الأعظمية: مركز قضاء ومنطقة تقع شمال مركز مدينة بغداد على الجانب الشرقى لنهر دجلة سميت بالأعظمية على اسم الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان، ومنطقة الأعظمية تضم جامع الإمام الأعظم والمقبرة الملكية وكلية الإمام الأعظم إضافة إلى معالم قديمة وحديثة متعددة، منها جمعية منتدى الإمام أبى حنيفة التى تأسست عام ١٩٦٨م. (المترجم)

منظر ضريح الإمام الأعظم، وجامعه الشريف، وضريح وجامع الإمام موسى الكاظم الواقعان على الضفة اليسرى للنهر، منظرًا خلابًا للغاية من بين الجسر وحدائق النخيل الواقعة على ضفاف نهر شط العرب، وعندما دخلت الأعظمية ووصلت إلى جامع الإمام الأعظم، نزلت عن الجواد وبحثت عن مكان أغتسل به من تراب وعناء السفر وأتوضأ لأصلى صلاة الجمعة، ورأيت بناءً نوافذه تطل على الميدان ظننت أنه خان أو مقهى من الزحام الذى كان عليه، ولكننى علمت أنه منزل الشيخ نعمان أفندى خادم ضريح الإمام الأعظم، ولأنه رجل كريم للغاية، وبابه مفتوح على الدوام يكون منزله دائمًا مزدحمًا، أما الزحام الذى كان موجودًا حينئذ فهو بمناسبة زيارة الأحباء للضريح يوم الجمعة، استقبلنى الأغوات عند الباب، وأدخلونى، وبينما كنت لا أعلم أين نحن سألت عن مكان الوضوء، فأتى إلى جانبى شخص ذو وجه بشوش، لحيته سوداء، على رأسه عمامة، وقال لى: «أغلب الظن أنكم على سفر، ما زال هناك وقت على الصلاة لتستريح قليلاً، ثم تتوضأ ونذهب للجامع معًا». وعندما قال لى هذا فهمت أننا لسنا فى خان أو مقهى، وسألته من هو وأين نحن، فقال لى إنه نعمان أفندى خادم الضريح، ونحن فى بيته، وبعد أن أكرمنى بالقهوة والنارجيلة، أخذنى لغرفة أخرى لأغتسل وأتوضأ.

ثم بعد ذلك أحضر الخدم صينية كبيرة عليها طعام، لقد تحيرت من إكرام ولطف هذا الرجل، لقد أكرمنى لمجرد أننى على سفر، فى حين أنه لا يعرفنى ولم يسأل من أين أتيت وإلى أين أذهب، رفع الأذان، ذهبنا للجامع وبعد أداء الصلاة فتح نعمان أفندى باب الضريح وتسنى لنا زيارة الإمام الأعظم مع بقية الزوار.

كان جامع الإمام الأعظم كبيرًا ذا مئذنة واحدة، يبعث السرور فى النفس، وللجامع فناء كبير محاط من الناحيتين اللتين تطلان على الميدان والسوق بسياج من الحديد المشغول، ولهذا الفناء بابان، ويتصل الضريح بالجامع الشريف، وبابه داخل الجامع.

وقد ظهر أمامى فى تلك الأثناء أحد أحبائى القدامى، وهو نجيب بك، حفيد نجيب باشا والى بغداد الأسبق، الذى كان فى بغداد منذ فترة لتسوية بعض

المصالح الشخصية له، وقد أوضح لى أنه حسب فترة وصولى إلى هنا؛ لذا أتى فى هذا اليوم لاستقبالى، وقد ذهبنا معًا لمقابلة بهجت بك ناظر الديون العمومية ببغداد، وبعد أن ودّعت نعمان أفندى وشكرته على حسن مقابلته وإكرامه للضيوف، ركبت سيارة مع نجيب بك وبهجت بك، ووصلنا بغداد بعد نصف ساعة، ونزلت فى تلك الليلة ضيفًا فى منزل بهجت أفندى.

بغداد(١)

بغداد المعروفة بدار السلام، والزوراء، مدينة عظيمة، يقع الجزء الأكبر منها داخل القلعة على الضفة اليسرى لنهر شط العرب، أما القسم الأصغر فيقع على الضفة اليمنى للشط، وتم ربط الضفتين ببعضهما بواسطة عدة جسور خشبية أقيمت على دعامات فى أماكن مختلفة من المدينة، ويطلق على القسم الواقع فى الناحية اليسرى للنهر اسم (الرصافة)(٢)، أما القسم الواقع على الضفة اليمنى فيسمى (الكرخ)(٣)، ويوجد بالرصافة البلدية، أما الكرخ فتعد الإدارة الثانية للبلدية فى بغداد.

وقد هدمت القلعة قبل خمس وعشرين أو ثلاثين سنة؛ لأنها كانت مانعًا من توسعة المدينة، ولم يتبق منها إلا أساسها وباب أو اثنان على شكل الأبراج.

وبهذه المناسبة حكيت لهم قصة إنشاء مقر لحكومة ديار بكر خارج القلعة؛ إذ إن القلعة كانت سببًا أيضًا فى عدم توسع المدينة، ولما آلت المدينة إلى وضعها القديم، تم نقل مقر الحكومة إلى مقره القديم، ومع أن هدم قلعة بغداد خدم المدينة فى توسعاتها، كما أنه حمى الأهالى من تسلط العشائر؛ فإنه فتح الباب

---

(١) عاصمة العراق ومركز محافظة بغداد، بغداد تعتبر أكبر مدينة فى العراق وثانى أكبر مدينة فى العالم العربى بعد القاهرة، وتعتبر المركز الاقتصادى والإدارى والتعليمى فى الدولة. (المترجم)

(٢) الرصافة: هو أحد قسمى مدينة بغداد على الجانب الشرقى لنهر دجلة ويوجد فيه العديد من المناطق والشوارع الحيوية مثل الأعظمية وزيونة ومدينة الثورة (الصدر حاليًا). (المترجم)

(٣) الكرخ: أحد قسمى مدينة بغداد على الجانب الغربى لنهر دجلة، ويوجد فيه المناطق الحيوية للعاصمة العراقية، ومنها: المنصور، والكاظمية، والصالحية، وشارع حيفا، والعامرية. (المترجم)

لوجود خطر كبير عند فيضان نهر شط العرب؛ لأن وجود القلعة كان يحمى الجهة الخلفية للمدينة من فيضان المياه، ولعل التوسع لأية مدينة يتوقف على كثرة الأهالى وعلى وجود الصناعة والتجارة، وأظن أن المدينة التى تمتلك هذه الأسباب للثروة ستتسع بالتأكيد، ولن يكون وجودها داخل قلعة مانعًا من توسعها.

والقادم إلى بغداد نهرًا يشاهد - أول ما يشاهد - على ساحل نهر شط العرب فى القسم المعروف بالرصافة قصر (النجيبية)، الذى أنشئ خصيصًا ليكون مقرًا للمرحوم ناصر الدين شاه، شاه إيران السابق، الذى قام برحلة لبغداد عام ١٢٨هـ، ثم يشاهد بعد ذلك مكتب الصنايع، ثم مقر الحكومة، ثم إدارة المشيرية، ثم المعسكر الهمايونى، ثم المكتب الإعدادى العسكرى، ثم الجسر الذى يربط الضفتين ببعضهما، ثم أسفل الجسر إدارة الجمرك، وسفن الشركة الإنجليزية التى يطلق عليها (لنج) التى تبحر بين بغداد والبصرة التابعة للإدارة النهرية العثمانية، ثم بعد الجسر توجد مجموعة من المنازل الساحلية والمقاهى. أما الناحية المعروفة بناحية الكرخ الموجودة على الضفة اليمنى للنهر فيشاهد بها أولاً حيا سكنيا، ثم مستشفى المغتربين المواجه تمامًا لمقر الحكومة على الضفة المقابلة، ثم إدارة الترسانة، وما بعد الجسر عبارة عن محلات داخل حدائق النخيل.

يبلغ طول المدينة على ساحل النهر سبعة كيلو مترات، وتمتد حدائق النخيل لساعات بطول الساحل فى النواحى العلوية والسفلية للمدينة، وبخلاف حدائق النخيل المذكورة يتوجد أيضًا بجوار وداخل المدينة العديد من حدائق البرتقال، وعندما يحل موسم تفتح زهور البرتقال والليمون تنتشر رائحة العبير الجميلة بين تلك الحدائق، فتجعل من يسير بها فى نشوة وسعادة.

أما القادم إلى بغداد برا من الأعظمية، مثلما أتيت أنا، فيأتى من الطريق الذى يمر من بين حدائق النخيل ويدخل المدينة من باب الإمام الأعظم، وباب من بقايا قلعة متهدمة، وبعد الدخول من هذا الباب يجد الداخل مجموعة من المقاهى التى تصطف على الجانبين، ثم بعد ذلك يصل إلى مكان يعرف باسم (الميدان الشرقى)، وأول ما يلفت الانتباه هنا جامع أحمد باشا الكبير الذى زينت

قبته ومئذنته بقطع القاشانى الملونة، وعلى الناحية اليمنى يوجد باب إدارة الطوب خانه، ثم بعد ذلك يدلف القادم إلى سوق وحوانيت المدينة، وكل ما ذكرناه من الأماكن الأميرية والملكية السابقة مبنية بالحجارة، ما عدا مقر الحكومة، وإدارة المشيرية؛ فقد بنيا بالأخشاب القديمة، ويبلغ عدد سكان بغداد الحاليين الموجودين بالمدينة مئة ألف نسمة، وبخلاف الرقم المذكور، يوجد بالمدينة الكثير من الزوار الإيرانيين الذين يستقرون بشكل مؤقت فى بغداد، وكذا التجار الذين وفدوا إلى بغداد، ورجحوا الإقامة بها، ويختلف الأهالى فى الزى والملبس تبعًا لصنف ومذهب كل قسم، على سبيل المثال: الأشراف والأسرة الحاكمة الذين يتعيشون من إيراد أملاكهم يرتدون العنترى والجبة والمشلح، ويضع بعضهم على رأسه العمامة، وبعضهم الطربوش، أما العاملون فى إدارات الحكومة فيرتدون مثل موظفى إستانبول: السترة والبنطال، أما الطبقة الثانية من الأهالى فيرتدون العنترى والمشلح ويلفون على رءوسهم كوفية من الحرير الأصفر، أما طبقة العمال فيرتدون الجبة العنترية، ويلفون على رءوسهم كوفية ملونة بالألوان البيضاء والزرقاء، أو البيضاء والحمراء، ويطلقون على الجبة العنترية فى بغداد اسم (زبون)، كما أن اليهود يرتدون كذلك الزبون والمشلح، ويلفون على رءوسهم عمامة من القماش اليمنى على قماش أبيض، أما النصارى فيرتدون الزبون والمشلح، ولكنهم يضعون على رءوسهم الطربوش، أما النساء المسلمات فيرتدين فى الأسواق ملاءة من القطن أو الحرير، مشغولة، ونقابًا مصنوعًا من الوبر الأسود وخفًا أصفر مرتفعًا، ونقلاً.

أما النساء اليهوديات فيرتدين ملاءة منسوجة على شكل مربعات خفيفة، مربع أبيض ومربع بنفسجى، ومشغولة من على الجوانب بالخيوط الصفراء، ونقابًا من الوبر الأسود، ويستعملن النعل فقط، أما النساء النصارى، فعلى الرغم من أنهن يرتدين مثل نساء المسلمين؛ فإنهن أحيانًا يتركن وجوههن مكشوفة، وأحيانًا يتسترن بقماش رقيق كالمنديل، ولا يرتدين فى أرجلهن سوى البوت أو القاندورة.

يتحدث معظم الأهالى اللغة العربية، ويوجد منهم الكثير ممن يعرفون اللغة التركية، إلا أن لغتهم العربية اختلطت بألفاظ دخيلة كثيرة من لغات مختلفة، على

سبيل المثال: تستعمل عندهم كلمات يواش، درد، خوش، جاريك، التركية والفارسية، حتى كلمة جلاس التى تعنى القدح بالإنجليزية فتستخدم بينهم، كما رتبوا الأفعال من الكلمات التركية مثل (مجمر) وتعنى: جامورلى أى ممطر، و(مجرك) وتعنى: جوروك أى فاسد، و (جالش) أى جاليشور وتعنى: يعمل.

منازل بغداد عبارة عن أبنية من الحجارة الصفراء، ولعدم وجود جص بالمدينة فإنهم يبنون حوائطهم بخرج خاص من الرماد والتراب الأسود، ويكون هذا الخرج متينًا و محكمًا مثل الجص والخرسان، أما الجص اللازم لطلاء الغرف من الداخل فيجلبونه من منطقة تسمى هيت، على نهر الفرات، ومع هذا فإن الخرج المذكور تبنى به منازل الأثرياء فقط، أما بقية الأهالى فيبنون منازلهم بالطين العادى؛ لذا يتهدم الكثير من الحوائط كل عام عند اشتداد المطر، ولا يشبه رسم وشكل المنازل فى بغداد الشكل الذى نعرفه فى إستانبول، والأبنية كلها هناك موجودة فى فناء مربع يحيط به من جهتين أو ثلاث جهات، وأحيانًا يحيط هذا الفناء بالمنزل من جهاته الأربع، وبالمنازل كلها طابق أرضى يطلقون عليه (سرداب) يقيمون فيه وقت الحر، أما الغرف فتوجد فى الطابق الثانى، ويوجد ممر دائرى أمام تلك الغرف يطلقون عليه (طرامه)، والمنازل فى بغداد لا يوجد بها طابق ثالث، وبين الغرف توجد غرفة صغيرة معلقة مثل الصندلة يطلقون عليها (كفشكان)[1]، ولأنهم ينامون على الأسطح فى فصل الصيف فإنهم يفرشونها بالتراب أو الآجر، ولا يوجد ماء جار فى المنازل، بل يستخدمون الآبار، أما مياه الشرب فيحضرها السقاءون من نهر شط العرب.

وبخلاف هذا توجد ماكينة مياه فى إدارة البلدية الأولى، تنقل مياه شط العرب لبعض الأحياء عبر المواسير.

وشوارع بغداد بالكامل بلا أرصفة، ولا يمكن العبور منها فى الطقس الجاف بسبب التراب، وفى الجو الممطر بسبب الطين، والسبب فى عدم وجود الأرصفة

---

(١) الكفشكان: هى عبارة عن غرفة صغيرة تقع فى الطابق العلوى، ارتفاع سقفها لا يسمح بوقوف الشخص ومعتدلاً، وتستخدم هذه الغرفة لحفظ الأفرشة الزائدة وحاجات البيت التى تستخدم فى المناسبات. (المترجم)

نابع من عدم وجود الحجارة فى المدينة، حتى الحمامات فرشت أرضياتها وزواياها بمادة القار الأسود، حتى المزارات، ينشئون على كل واحد منها مقامًا من الآجر بدلاً من الحجارة، وعلى الرغم من وجود الأحجار فى الموصل وهيت فإنه لم يخطر على بال أحد أن يجلبها إلى بغداد لعمل أرصفة للطرق، ولأن الطرقات هناك من التراب الأسود (الطين) فإنها عند المطر تكون صعبة المرور للغاية؛ بسبب الطين الكثيف الذى يسقط الإنسان أو الحيوان إذا ما سار عليه بكل تأكيد.

ولعدم وجود خنادق فى المدينة لجريان المياه المستخدمة؛ فإنه يوجد فى المنازل أو الأسواق آبار يسمونها بالوعات بدلاً من الخنادق، وإذا ما هطل المطر بكثرة فإن البالوعات تمتلئ، وتصبح الطرقات والشوارع كالبحيرات، ويضعون على رأس كل بالوعة حجرًا من الآجر مثقوبًا، وبالطبع فإن هذا الحجر لا يتحمل وبعد فترة قصيرة ينكسر أو يتدحرج من مكانه؛ وبالتالى يعرض المارة المترجلين أو الراكبين لخطر جسيم.

ومن الأمور المزعجة الضارة فى شوارع بغداد السقاءون الذين يحملون المياه، حيث يحمل كل سقاء منهم قربة كبيرة من جلد الماعز على حمار، ويملئون تلك القرب من نهر شط العرب عند المكان الذى يطلقون عليه (شريعة) الذى تنتهى عنده المدينة، ولا يوجد على تلك الحمير سروج، حيث يسير السقاءون بجوار الحمير ويمسكون القرب بأيديهم، وكل شوارع بغداد - بخلاف شارع أو اثنين - ضيقة للغاية لدرجة أن راكب الجواد لا يستطيع السير بجواده فى تلك الشوارع، وعلى هذا يزيد السقاءون من مشكلة الشوارع بقربهم المبتلة ويجعلون التراب الذى بها طينًا، لاسيما وأن بعض القرب تكون مثقوبة فتصبح كالفسقية، تنثر المياه هنا وهناك.

ولا تستخدم العربات فى شوارع بغداد نظرًا لضيقها، ويوجد لدى كل شخص فى بيته عدد من الدواب على حسب قدرته، ولا توجد خيول أو بغال للإيجار، أما الدواب التى تؤجر فهى الحمير فقط.

ولا يستعمل سائقو الحمير العصا أو السوط لتسيير الحمير، ولكنهم يسيرون خلف الحمار ويقولون (خى)، وعندما يسمع الحمار هذا الصوت يسير أسرع مما يضرب بالسوط، ولأن الحمير لا تحدث صوتًا عندما تسير بسبب عدم رصف الطرقات هناك، فإن أصحاب الحمير يعلقون جرسًا عند فم الحمار لينبه من يسير أمامه، هذا فضلاً عن أن سائق الحمار يصيح قائلا (بالك).

ونقل الأحمال والأثقال فى بغداد خاص بالحمير، وبخلاف هذا يوجد العديد من الحمَّالين الأكراد من أهالى راوندذ وكركوك، وعندما يضعون الأحمال على الحمار لا يربطونها بالحبال، بل يسير الحمَّال بجانب الحمار ويمسك الحمل بيده مثلما يفعل السقاء، وإذا ما كان الحمل كبيرًا يسير رجلان من على جانبى الحمار، ولا يوجد سرج عند الحمالين، بل يوجد عندهم مشلح، أو جوال، يضعون به الأحمال ثم يربطونها على رءوسهم ويلفونها خلفهم، وإننى أتعجب من تلك القوة التى عند هؤلاء الحمالين فى رءوسهم، حيث يحملون حملاً بثقل خمسين أو ستين أوقية على هذا الشكل، ويضع هؤلاء الحمَّالون على رءوسهم زنبيلاً، ويرتدون عباءة تشبه العباءة الإيرانية تتدلى حتى ركبتهم، أما أرجلهم فلا يرتدون بها شيئًا، وأحيانًا ينامون عند الأسواق، ويعد هذا من المناظر القبيحة لمن يفد إلى السوق لما فيه من رؤية أفخاذهم قبيحة الشكل، والسقاءون أيضًا يرتدون نفس زى الحمَّالين، وعدم ارتداء السروال الداخلى ليس خاصًا بالحمَّالين السقاءين فقط، بل هو عادة كل الأهالى.

وللانتقال إلى الضفة الأخرى من النهر أو الذهاب إلى القرى التى تنتشر بطول الساحل يوجد نوع من الزوارق دائرى الشكل، يشبه البرميل الصغير، يطلقون عليه (قفة) أو كفة، تصنع تلك القفة من أفرع النخيل وتكون على شكل السَّلّ، ويضعون عليها مادة القار (الزفت)، ولأنها دائرية؛ فليس لها مقدمة أو مؤخرة، ويحركها رجل أو اثنان يمسكون فى أيديهما بقطعتين من الأخشاب بدلاً من المجاديف، يحركون بها المياه فتسير القفة، وبخلاف فلوكات الترسانة والسفن لا يستخدم الأهالى على نهر شط العرب سوى تلك القفة.

ويوجد ببغداد خط (ترامواى) يمتد لمسافة ستة كيلو مترات من ناحية كرخ وحتى قصبة الكاظمية المدفون بها الإمام موسى الكاظم.

وقد أنشئ هذا الخط قبل خمسة وعشرين عامًا على شكل شركة مساهمة، ولا يزال يعمل حتى اليوم، ويستفيد منه كل الزوار الإيرانيين فى مواسم زيارتهم.

ولأن حوانيت بغداد بنيت على الطراز القديم، فهى مرتفعة عن سطح الأرض كثيرًا؛ وتوجد سلسلة أمام كل حانوت، بآخر تلك السلسلة حلقة، يمسك أصحاب الحوانيت بتلك الحلقات ويصعدون وينزلون من خلالها، ويوجد بكل الحوانيت - كحوانيت البقالة والفاكهة- ما يشبه القصيدة الشعرية التى تمدح ما عند البائع من بضاعة، حتى يجلب المشترين له.

وقد رأينا فى ديار بكر أن الأوقية تساوى خمسمائة درهم، وفى حصن كيف تساوى ستمائة وأربعين درهمًا، وكلما كنا ننزل مع ساحل شط العرب نجد الأوقية تزيد فى الحجم، وقد رأينا أوقية فى بغداد تساوى ألف درهم، ويطلقون على الأوقية الكاملة (قية) أما الربع أوقية فيطلقون عليها (وقية)، والأوقية التى تساوى أربعمائة درهم تسمى الأوقية الإستانبولية.

والموازين والمكاييل فى بغداد متنوعة، حيث يختلف الوزن طبقًا لجنس الشىء ونوعه، وحساب الأقجة عندهم شىء عجيب، فيسمون العشر أقجات (قرش) العشرين (قمرى) الأربعين (أربعة قروش)، ولأن القادم للمدينة حديثًا لا يعرف ماذا يعنون بكلمة القروش هذه يظن أن قيمة الأشياء مرتفعة جدًا، حتى إن أحد الخدم أخذ منى مصروف المطبخ لمدة شهرين أزيد أربعة أضعاف مما يأخذه نتيجة لهذا الخطأ فى الحساب.

ولا يوجد فى أحياء بغداد عمال للإضاءة مستقلين مثل إستانبول، حيث يقوم بتلك المهمة فى بغداد عمال من قبل البلدية يقومون بتنظيف القناديل وإشعالها فى الشوارع ليلاً، ولأن هؤلاء الموظفين متعددون؛ يوجد واحد عند رأس كل شارع وينادون بين الحين والآخر قائلين (يا الله) ليعلموا الباقين أنهم لم يناموا.

وبيع الأشياء القديمة فى بغداد خاص باليهود، وينادون قائلين (بيع) بدلاً من (أخذ الأشياء القديمة). وبغداد مثل كل مكان، تنتشر الكلاب فى شوارعها.

وتفترش تلك الكلاب وسط الشوارع فى الطقس الحار وتبدو كأنها قد ماتت؛ لذا فإن من يمر من الطريق لا يستطيع أن يسير بشكل مباشر خشية أن يضع قدمه على تلك الكلاب التى تفترش الطريق، أو خشية الاصطدام بحمير السقائين، وأوضاع تلك الحيوانات المسكينة فى بغداد تدعو للشفقة بهم، وفى إستانبول يوجد بجوار كل حانوت قديم وعاء ليشرب منه الحيوانات، أما فى بغداد فلا وجود لمثل تلك الأشياء إطلاقًا، وبالتالى تهلك تلك الحيوانات من شدة الحر والعطش، لدرجة أنها تثب على مياه النارجيلات التى تلقى من المقاهى كأنها تثب على وليمة من العظام، وعلى الرغم من أن البلدية خصصت بعض الموظفين لسقى تلك الكلاب فى بعض الشوارع ببغداد؛ فإن كل الكلاب الموجودة بالمدينة محرومة من هذه الرعاية.

وفى فصل الصيف ينتشر طائر الكلك بكثرة فى بغداد، ويأتى هذا الطائر فى فصل الصيف، ثم يذهب فى الشتاء إلى الأماكن الأكثر دفئًا كما هو الحال فى كل الأماكن، وعندما يحل موعد مجىء تلك الطيور يسيرون فى شكل أسراب، خمسة أو عشرة أو عشرين، وعندما يراهم الأطفال يصيحون فى صوت واحد (وقع) أى أسقط على الأرض، وعندما يسمع طائر الكلك هذا الصياح يختل توازنه فيسقط منها واحد أو اثنان على الأرض، وهذه من الغرائب، ولا يوجد فرق فى بغداد بين العقرب وبين ذكر النحلة، الذى يطلقون عليه زنبور، فكلاهما يصيب المكان الذى يلدغه بألم شديد يستمر أربعًا وعشرين ساعة، لكن لدغتهم ليست مهلكة.

والتبغ العادى فى مثل تلك البلدان الحارة يجف تمامًا لدرجة لا يمكن تدخينه، ويستعملون فى بغداد نوعًا من التبغ يسمونه (شاغور) يجلبونه من نواحى كركوك والسليمانية، ويدخن الأهالى فى بغداد النار جيلة أكثر من التبغ، حتى النساء عامة تدخن النارجيلة، ويحملون تلك النارجيلات معهم إذا ما ذهبوا للزيارة أو الحمامات أو التنزه، حتى إن النساء العربيات يبعن ماسورة النارجيلة فى

الأسواق، والنارجيلة عبارة عن نوعٍ يطلقون عليه (غليان) مصنوع من الجوز الهندى.

وكما أوضحت سابقًا أننى قضيت أول ليلة لى ببغداد فى منزل بهجت أفندى.

وفى صباح اليوم التالى الموافق الخامس من شهر أكتوبر استأجرت قصرًا خاليًا لشخص يدعى رزوق عبود، يقع هذا القصر بين حدائق النخيل والبرتقال بناحية (باب شرقى) أسفل المدينة، ونقلت أغراضى هناك، ثم التقيت بعد ذلك بوالى الولاية تقى الدين باشا، ومشير الجيش السادس هدايت باشا، وناظم بك متصرف المركز، وبقية الموظفين الآخرين، كان تقى الدين باشا صاحب ذكاء شديد ذا فضل وعلم، أما هدايت باشا مشير الجيش فهو رجل ذو حمية وغيرة وهمة.

كان الباشا الوالى يقيم فى قصر النجيبية السابق ذكره، والذى يقع أعلى المدينة، وعند المرور من الطوب خانة للذهاب إلى هناك رأيت مدفعًا من المدافع العتيقة أمام باب الطوب خانة، كان مقامًا على سد أنشئ خصيصًا له، يرتفع نصف ذراع، وأحيط ما حوله بالسلاسل، كان هذا المدفع من المدافع التى استخدمت أثناء فتح السلطان مراد الرابع لبغداد، وقد لفت انتباهى وجود أفرع الأشجار على تلك السلاسل التى كانت تحيط بهذا المدفع، وقد سألت الشخص المرافق لى عن سبب هذا، فقال إن الأهالى يقدسون هذا المدفع ويأتون لزيارته ويدعون عنده، حتى إن بعض النساء يأتين بأطفالهن الذين ولدوا حديثًا ويضعون الأطفال عند فوهة المدفع، ويطوفون بهم حوله، ويدعون لهم بطول العمر.

والذين يقيمون فى بغداد فترة يحتاجون لوجود حيوانات يمتطونها، ولهذا عندما أردت شراء جواد لى لم أجد جوادًا عربيا جيدًا لأشتريه، وعلى الرغم من أنه توجد مجموعة من الخيول والبغال الأصيلة ولكنها قبيحة فى حظائر من يشتهرون بأنهم يمتلكون جيادًا جيدة، فإنها لا تتفق كلية مع شهرة وكبر بغداد، وسألت عن سبب ذلك فقيل لى: «إن السبب فى عدم وجود خيول جيدة هو منع تصدير الحيوانات إلى الهند».

لأنه وبمرور الوقت، كان يوجد مجموعة من لاعبى السيرك الأثرياء الذين يشتغلون بتلك التجارة، وكان لهم العديد من الحظائر الضخمة فى ناحية الكرخ، يشترون الدواب التى تجلبها عشيرة شمر كل عام، ويربونها فى تلك الحظائر، والذين يريدون شراء الخيول يذهبون إليهم ويشترون منهم ما يعجبهم من تلك الدواب، كما يذهب إلى تلك الحظائر من يريد بيع الخيول فيبيعها لهم، والحاصل أن ناحية الكرخ ببغداد أصبحت بمثابة السوق الكبير للخيول، وكان منع تصدير الدواب للهند، وكذا معاملات هؤلاء التجار، مقتصرًا على البيع والشراء داخل المدينة فقط، ولأن هذا لم يكن كافيًا لإدارتهم؛ كانوا يبيعون الحيوانات التى فى أيديهم، وبعد الدفع لا يشترون دوابًا أخرى من أفراد عشيرة شمر، ولأنه ليس من السهل على أفراد عشيرة شمر إيجاد سوق لهم فى بغداد يبيعون فيه دوابهم أصبحوا لا يجلبون أى دواب لبغداد، وتقول رواية أخرى إن العرب يحتفظون فقط بإناث الدواب التى تتوالد عندهم، وأنهم بدؤوا يتلفون ذكورها، وواقع الأمر أن البدو ينتظرون منفعتين من إناث الجياد الأصيلة: الأولى أنها تتحمل مشقة العمل، والثانية أنهم يبيعون إنتاجها؛ لذا فإنهم لا يربون ذكور الجياد، وهذا ما يؤكد صحة الرواية التى تقول بأنهم يهلكون صغار تلك الجياد إذا كانت ذكورًا؛ وذلك حتى لا يتحملوا مشقة تربيتها، ولكن مع هذا، هل أدى حظر تصدير الدواب المطلوب منه؟ والإجابة: لا، وذلك لأن بعض الرجال يقومون بالذهاب إلى الصحارى ويشترون ما يتمكنون من إيجاده من دواب منهم بحجة أنهم لا يمتلكون أى دواب، وبعد نقلها إلى داخل الحدود الإيرانية ينقلونها بالسفن إلى الهند من المحمرة، والمسألة على هذا تجلب الخسارة للدولة من ثلاثة أوجه: الأول أن العربان لا يهتمون بتربية الذكور من الدواب، الثانى إصابة بعض الأهالى بالضرر فى معيشتهم بسبب تعطيل حركة البيع والشراء فى ناحية الكرخ التى كانت تعد بمثابة سوق الخيل فى بغداد، الثالث ضياع الرسوم التى تحصلها الدولة كلية.

هذه هى الإجابة التى حصلت عليها عندما سألت سؤالى، وبعد فترة ذهبت للحظائر الموجودة بناحية الكرخ ورأيت ضخامتها وكثرة عددها، وأدركت حينئذ مدى الضرر والخلل الذى سببه منع هذا السوق.

وعلى الرغم من أن الدولة سمحت مؤخرًا بتصدير الحيوانات إلى الهند ببعض القيود والشروط، فإن إحياء هذا السوق المهم للخيل يحتاج لوقت طويل؛ لأن لاعبى السيرك كانوا قد قاموا بحل حظائرهم ووجهوا رءوس أموالهم إلى المعاملات التجارية الأخرى.

وبذلك انقطع عندى الأمل فى الحصول على جوادٍ جيد، وفى النهاية وجدت جوادًا فى قبيلة عنزة فاشتريته، ومن المعروف أن خيول عنزة أيضًا جيدة، ولكنها فى الأماكن الصغيرة فقط.

الكاظمية (١)

كان يوم الإثنين الموافق السابع من أكتوبر الموافق العاشر من شهر المحرم، ذهبت فى هذا اليوم مع بعض الأشخاص لقصبة الكاظمية لرؤية المأتم الذى يقوم به الإيرانيون فى فناء ضريح الإمام موسى الكاظم، يقع الضريح والجامع الكبير ذو الأربع مآذن فى وسط فناء كبير مفروش بالرخام، كان الجامع والضريح مزينين بالزينات العربية والإيرانية الجميلة، والفناء محاطًا من جهاته الأربع بالغرف الخاصة بإقامة الزوار والخدم، كما كانت قبة الضريح المرتفعة الكبيرة، وكذا أعلى المآذن الأربعة مغطى بالذهب، وعلى جانب تلك القبة الكبيرة توجد مجموعة من القباب الصغيرة، وطنف محمول على العديد من الأعمدة الرقيقة، وقد غطيت أرضية القبة الكبيرة وأرضية القباب الصغيرة والأعمدة وسقف الطنف بآلاف القطع الزجاجية والخشبية الضغيرة، أما شرفات المآذن فقد غطيت بطنف محمول على أعمدة رقيقة ومذهبة حول الشرفة. أقمنا تلك الليلة فى الكاظمية، وشاهدنا المأتم، ومن الأشياء التى لفتت انتباهى اشتراك النساء والعرب الشيعة فى هذا المأتم.

---

(١) الكاظمية: من المناطق المقدسة لدى الشيعة تقع شمال بغداد وعلى بعد ٥ كم فى الجانب الغربى منها وعلى الضفة الغربية لنهر دجلة بجانب الكرخ، ويوجد بها الحضرة الكاظمية، وهى ضريح الإمام موسى الكاظم وحفيده محمد الجواد. (المترجم)

وبمدينة بغداد المزارات المشهورة، ومنها: مزار الشيخ عبد القادر الجيلانى، وضريح الشيخ عمر السهروردى، الواقع داخل القلعة المنهدمة خارج المحلات، وضريح الشيخ معروف الكرخى على الضفة المقابلة من النهر، وبخلاف ما ذكر، يوجد أيضًا ضريح الإمام أحمد بن حنبل، والشيخ الشبلى، وسرى السقطى،

والسيد أبى الحسن على، وقبر السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد، ويعد ضريح وجامع عبد القادر الجيلانى هو أجمل تلك المزارات من ناحية الزينة والعمارة، فله الكثير من الأوقاف والعقارات، ويجلب الزوار الهنود والبخاريون الهدايا والأموال إليه.

إقبال الدولة

(إقبال الدولة) هو أحد الأمراء الهنود الذين هاجروا إلى بغداد منذ خمسين عامًا وفضلوا الإقامة فيها، ولأن زيارة هذا الأمير كانت أحد بنود زيارتنا لبغداد، فقد ذهبت لمنزله الساحلى الواقع بجوار (باب شرقى) على ضفاف نهر شط العرب، مع ناظم بك متصرف المركز، وحسن رضا أفندى دفتر دار المركز، والتقيت به، كان شخصًا مسنًا تجاوز السبعين من عمره، وعلى الرغم من هذا كانت ذاكرته قوية وصحبته ممتعة، وعلى الرغم من أن ثروته كانت كبيرة لدرجة لا يمكن وصفها، وأن خزائنه كانت مليئة بصناديق المجوهرات والنقود بخلاف خمسة وعشرين مليون ليرة كانت فى بنوك إنجلترا؛ فإن خسته ودناءته كانت غير قابلةٌ للوصف أيضًا، فلا يوجد من يعرف أنه أنفق ولو أقجة واحدة فى أوجه الإحسان والخير فى بغداد، التى اتخذها وطنًا ثانيًا له منذ ما يقرب من خمسين عاما، ولم تمنعه خسته عن إعطائه الأموال والهدايا لهذا وذاك لإقامة الدعاوى على الأشخاص بقصد إزعاجهم بسبب أملاكه، وقد أنفق مئات الليرات، بدون سبب ؛ لكى يحصل على الميراث من يد أصحابه، كان منزله مملوء بالجوارى المتعددة، لا تخرج أى واحدة منهن إلى الشارع مطلقًا، ولم يلتقِ أى شخص كان بإحدى حريمه، وبعد فترة توفى هذا الرجل وأنا ما أزال فى بغداد، ولم يكن له ورثة يرثونه فانتقلت كل ثروته للقنصلية الإنجليزية بما أنه من الرعايا الإنجليز.

نواحى بغداد وملحقاتها

تحركت من بغداد قاصدًا كربلاء يوم الأحد الموافق السابع عشر من شهر نوفمبر عام ١٣٠١رومية، وفى المكان الذى يعلو ناحية الكرخ بساعة ويسمونه

(خر) كان به جدول يمتلئ بالمياه وقت الفيضان ويصب فى نهر شط العرب، وكان يوجد جسر صغير من الأخشاب على المياه، يمنح هذا الجسر لأحد الملتزمين من قبل البلدية، يأخذ الملتزم رسم مرور من المارين من على هذا الجسر بالتعريفة المتعارف عليها، ولأن الوقت لم يكن وقت الفيضان كان الوادى جافًا، وسحبت دعامات الجسر إلى ناحية الشاطئ، سرنا من مجرى الجدول الجاف، وأتى إلينا رجال الملتزم وطلبوا منا النقود نظير مرورنا، وهذا يعد من الأمور الغريبة أن ندفع رسمًا لجسر حلت دعائمه ولا يمر من عليه الناس.

تقدمنا ثلاث ساعات ووصلنا لأطلال خان يمسى (آزاد خان)، ثم وصلنا بعد ذلك إلى مركز ناحية المحمودية، وبعد أن استرحنا هناك وتناولنا طعام إفطارنا تقدمنا ثلاث ساعات أخرى حتى وصلنا إلى خان (الإسكندرية)، أقمنا ليلتنا هناك، وعندما كنا فى الطريق كنا نشاهد فى الأراضى الخالية الفسيحة المياه وكأنها بحيرات، حتى إننا كنا نرى بعض الأماكن المرتفعة فى وسط تلك المياه، ولعل هذا هو السراب الخاص بالصحارى؛ لأننا كنا نفتقده عندما نقترب منه.

ولأن هذا الوقت كان يتصادف مع وقت عودة الحجاج من طريق الصحراء، كنا نصادف فى الطريق، وفى خانات الطريق، بعض قوافل الحج المكونة من البخاريين والهنود والعرب والعجم والكرد والتتار، وكان هؤلاء الحجاج يكبرون ويصلون على النبى بصوت جهورى كل خمس أو عشر دقائق، وذلك بإشارة من رئيس القافلة أو شيخ القافلة.

وكان يقيم معنا فى خان الإسكندرية فى تلك الليلة مجموعة من حجاج القارة باباقلى، وشاهدتهم يؤدون الصلاة بشكل غريب، فبينما كانوا يصلون صلاة العشاء فى وسط الخان أمام سد أقاموه كانوا يضعون أيديهم على خصورهم بسرعة، وينظرون حولهم، حتى إنهم كانوا يشيرون بأيديهم إلى السقاء ليضع المياه فى مكانٍ ما، أو يشيرون لأحد رفقائهم إلى مكانٍ ما أيضًا.

وكنت أظن أنهم لم يشرعوا فى الصلاة بعد بسبب التفاتهم والإشارات التى يشيرون بها، ولكنى أدركت أنهم يصلون عندما ركعوا وسجدوا.

المسيب[1]

تحركنا من خان الإسكندرية فى وقت السحر من اليوم التالى، ووصلنا المسيب فى ساعتين، والمسيب مركز أحد النواحى الواقعة على نهر الفرات، وهى تابعة لكربلاء، وعلى الرغم من أنها على الضفة اليسرى لنهر الفرات؛ فإنه توجد محلة تقع على الضفة الأخرى من النهر، ويوجد بين الساحلين جسر خشبى مقام على أعمدة خشبية، وتشاهد على نهر الفرات القوارب الشراعية بأحجامها المختلفة المصنوعة من الأخشاب والتى تعمل بالمجاديف، ويطلقون على الكبير من تلك القوارب (طرادة)، وعلى الصغير منها (ساقية)، وعلى الرغم من أن القفة التى تستخدم فى بغداد موجودة فى نهر الفرات؛ فإنها قليلة الاستخدام، وضفتا نهر الفرات عامرتان بالقرى وحدائق النخيل مثل ضفتى نهر دجلة، ولا يوجد فى الصحراء الواقعة بين بغداد والمسيب من الأراضى المزروعة سوى أراضى (خر) و(المحمودية) و (المسيب) وباقى الأراضى الخالية الواقعة بين النهرين كانت مزروعة قديمًا. امتلأت هذه القنوات اليوم بالتراب وتركت على حالها، وبعد أن استرحنا فى المسيب قليلاً عبرنا الجسر إلى الضفة الأخرى، وبعد ثلاث ساعات تناولنا طعام إفطارنا فى إحدى الحانات القديمة، ثم سرنا حتى وصلنا كربلاء فى خمس ساعات.

كربلاء[2]

كل أهل كربلاء من الشيعة وهم من الإيرانيين، وبخلاف هؤلاء، يفد إلى المدينة كل عام الكثير من الزوار الإيرانيين الآخرين، وقبل خمسة عشر أو عشرين عامًا

---

(١) المسيب: مدينة عراقية ومركز قضاء فى محافظة بابل فى منطقة الفرات الأوسط، وتقع على ضفاف نهر الفرات ويشطرها نصفين بين مدن بغداد وكربلاء والحلة، وتضم المدينة إحدى المحطات الرئيسية لإنتاج الطاقة الكهربائية فى العراق. (المترجم)

(٢) كربلاء: مدينة تقع على بعد ١٠٥ كم إلى الجنوب الغربى من العاصمة العراقية بغداد على حافة الصحراء فى غرب الفرات وعلى الجهة اليسرى لجدول الحسينية، ويحدها من الشمال والغرب محافظة الأنبار ومن الجنوب محافظة النجف، ومن الشرق والشمال الشرقى محافظة بابل. (المترجم)

جرت محاولة لتوسيع المدينة، فأنشئت محلة جديدة ؛ شوارعها منظمة وواسعة، خارج الأحياء القديمة، وأنشئ مقر الحكومة فى نهاية هذا الحى الجديد، وكما أن شوارع الأحياء القديمة ضيقة فإنه لا يوجد لمنازلها نوافذ تطل على تلك الشوارع، ولسوق المدينة قبو حجرى، ومعظم الحرفيين والبائعين به من الإيرانيين.

وبخلاف تلك المقاهى العادية، يوجد مجموعة من الأشخاص بنى كل واحد منهم موقدًا من الآجر فى العراء، ويبيع الشاى والقهوة فيه، وفضلا عن ضيق شوارع الأحياء القديمة، فهى محرومة من النظافة، وبكل أسف ، لا يمكن المرور منها من رائحة العفن التى تنتشر هنا وهناك، وتصل المياه من نهر الفرات إلى كربلاء بواسطة ترعة كبيرة تسمى (الحسينية)، وتعمل القوارب الكبيرة فى بعض المواسم فى تلك الترعة، وتمتد كربلاء فى تلك الجهة على هذه الترعة مسافة ساعة ونصف، وهى مساحة مزروعة وعامرة بحدائق النخيل على ضفتى الترعة، وفى يوم الثلاثاء التالى لوصولنا زرت قبرى الإمام الحسين والإمام العباس، ويشبه قبر الإمام الحسين قبر الإمام موسى الكاظم الذى أتينا على ذكره، ولكنه أجمل منه من ناحية الزينة، على سبيل المثال: أبواب قبر الإمام الحسين غطيت كلها بالذهب والفضة، وقد حفرت عليها الآيات القرآنية، كما رصعت رءوس التزيينات الفضية بالأحجار الكريمة، وبداخل القبر توجد لوحات فضية وذهبية حول القبة والأركان، قسم من الحوائط من الحجر المسمى (يشيم) أما الأرضية فهى من الرخام الملون، وعلى المرقد الشريف توجد شبكة ذات قبة من الذهب والفضة، والصندوق الموجود فى أرضية الضريح مغطى بستارة سوداء، ولوجود باب بالشبكة يقوم خازن الضريح ـ السيد جواد أفندى ـ بفتحه للزوار؛ مراعاة لخاطرهم وإكرامًا لهم ليدخلوا بجوار الصندوق ويدعوا عنده، وقد قام السيد جواد أفندى بعمل هذا معى أيضًا؛ إكرامًا لى، حتى إنه أهدانى قطعة من الستار المغطى به الضريح تبركًا بها، وتوجد راية سوداء معلقة على القبة وعلى مآذن الضريح بشكل دائم، ويقوم مجموعة من الأئمة بالوعظ فى الضريح، أما الزوار فيقوم واحد منهم بقراءة إحدى المراثى بصوت عذب، ويبكى الآخرون ويصيحون. حقيقة، يتسنى لكل من يقوم بزيارة الضريح أن يتذكر واقعة كربلاء المفجعة وأن

يتأثر بها، وفى فناء الضريح يوجد مجموعة من بائعى السبح والعقيق وأحجار كربلاء، كما تقوم مجموعة من النسوة العرب ببيع المراوح المصنوعة من خوص النخيل.

ومن المعلوم أن الشيعة ينقلون كل جنازاتهم إلى كربلاء، ولهذا توجد مزارات لأمراء إيرانيين وهنود فى معظم الغرف التى حول فناء الضريح، وتأتى الجنازات الفردية فى توابيت ملفوفة فى أجولة من الخيش، ثم ينقلونها إلى أرض القبر أولا لوجود مغارات أسفل فناء ضريح الحسين، وبعد أن يطوفوا بضريح الحسين يضعون التوابيت فى تلك المغارات، وعلى الرغم من أن تلك المغارات واسعة وضخمة؛ فإنه يلزم تخليتها مرة كل ثلاث سنوات أو خمس سنوات نظرًا لكثرة الجنازات التى تأتى كل عام؛ ومن ثمَّ يقوم عمال الحمامات بإخراج تلك العظام من المغارات ويبيعونها لتحرق فى الحدائق التى يطلق عليها (حطب).

وعلى الرغم من أن ضريح الإمام العباس على نفس شاكلة هذه الأضرحة؛ فإنه لم يكن مزينًا بالذهب والفضة مثل الأضرحة الأخرى، وتتمثل الزينة الموجودة عليه فى رسومات نباتية وأحجار إيرانية مزينة وملونة يطلق عليها القاشانى الإيرانى.

وفى صباح يوم الأربعاء الموافق العشرين من شهر نوفمبر سمعت ضجة فى الشارع فاستيقظت، لم يكن بالغرفة التى أقيم فيها نافذة تطل على الشارع، ولكن بابها كان يفتح على الأرض ويشبه الشرفة، فتحت الباب ونظرت على الشارع فرأيت أربعين أو خمسين رجلا من البدو الأعراب يحملون فى أيديهم البنادق والسيوف ويسيرون بخطوة أشبه ما تكون بالخطوة الرياضية، يسيرون خطوة ويتوقفون، ثم يسيرون، وهم يرددون عبارة على وزن (مفاعلن فعولن)، وكان يسير أمامهم شيوخهم ممتطين الدواب ويحملون فى أيديهم الرماح، ثم مر فوج آخر مثلهم على نفس الشكل، وقد سألت صاحب المنزل عن هذا الأمر، ومن أين يأتون وإلى أين يذهبون، فقال: هذا يوم زيارة الضريح الواقع بجوار المدينة لشخص من مشاهير الشجعان العرب، يدعى (حر)، حيث تذهب القبائل العربية المحيطة بالمنطقة لزيارته أفواجًا أفواجًا، أما العبارات التى يرددونها فهى فى مدح

شيوخهم، وبذلك يذكرون شهرة ومناقب شيوخهم، ويعبر عن هذا بين العرب بلفظ (حوسة)، وهذا من مقتضيات عاداتهم بإعلان المسرة فى الأفراح والزيارات وما شابهها.

رزازة وشفاتية

وفى تمام الساعة السادسة فى ذلك اليوم أخذنا أربعة من ضباط الحكومة والعديد من موظفى إدارة الديون العمومية، وتحركنا من كربلاء لمعاينة ملاحة (شفاتية) الواقعة بصحراء الشامية، وبعد أن سرنا ثلاث ساعات ونصف وصلنا لإحدى القرى العربية المسماة (رزازة) بها ما يقرب من مائة منزل بنيت من الخوص والغاب، كانت تلك القرية مزرعة ومقر إقامة شخص يدعى الشيخ (فهد) أحد مشايخ عشيرة عنزة، وقد أنعمت الحكومة السنية على فهد هذا بلقب البكوية، وكان فهد بك فى تلك الأثناء فى بر الشام؛ لذا استقبلنا وكيله الشيخ ماجد، وضيفنا عنده فى تلك الليلة.

وكما أن لكل قبيلة عربية شيخًا؛ فإن كل قبيلة منها تنقسم إلى فرق متعددة، ولكل فرقة منها رئيس يسمى (عجيد)، والعجيد هو الشخص الذى يجيد استخدام الرمح القصير الذى يسمونه (شلفة).

ولا توجد تشريفات بين البدو، ولكنهم يدعون مشايخهم بأسمائهم فقط، ولكنهم لا يستخدمون من الألفاظ التعظيمية إلا لفظ (يام محفوظ)، وإذا ما نادى أحد المشايخ على أحد العربان، رد عليه ذلك العربى قائلاً (عونك).

وينطق عرب عشيرة منتفق حرف الجيم كحرف الياء، ولا يستخدمون مطلقًا أداة النفى لا، فلا يقولون لا على أى شىء مطلقًا، ويعبرون عن رفضهم للشىء بتعبير (تسلم) أو (أطال الله فى عمرك).

وبينما كنت أستريح فى رزازة مساءً، رأيت جملاً جامحًا ومجموعة من العرب يهرعون خلفه، وعندما لحقوا به ضربوه على رأسه بالعصى التى فى أيديهم، فسألت ماجدًا عن سبب هذا فقال:

إن هذا الجمل «حج» فرجوته أن يبين لى ما المراد بأنه حج، فقال: "عندما يذهب الجمل للحج، يترك مكانه وأهله ويفر منهم ليلحق بقافلة أخرى.

ولن يتم تقويمه بالربط، ولهذا فهم يضربونه على رأسه لكى لا يهرب مرة أخرى كنت أعرف قبل ذلك جمل الحج، ولكننى تعلمت هنا حج الجمل.

كان سقف الصريفة التى أقيم فيها ترشح منه قطرات المياه وشىء يشبه حبات الملح، ولم أستطع النوم بسبب ذلك، نهضت قبل وقت الشفق بكثير، وأيقظت رفاقى للاستعداد للرحيل، كان الضباط المرافقون لنا لا يعرفون طريق شفاتية؛ لذا خرج معنا أحد العريان من القرية؛ ويدعى نصابًا، ليرينا الطريق.

وعندما كنت أتباحث مع الشيخ ماجد فى المساء عن مهربى الملح، ادعى أن أفراد عشيرته لا يقومون بمثل تلك الأعمال غير المشروعة، حتى إنهم لا يعرفون أين تقع ملاحة شفاتية، والأغرب من ذلك أنه قال: نحن قوم لا نضع الملح على طعامنا، وفى اليوم التالى أرسل معنا أحد أفراد القرية ليرينا طريق شفاتية، وهذا - إن دل على شىء - إنما يدل على الذكاء الفطرى لهؤلاء العريان، ولكنه مخلوط بحماقة.

تحركنا من رزازة، وكان دليلنا فى الطريق- وهو نصاب - رجلاً فى الثانية والخمسين من عمره، طويل القامة خفيف اللحية، كان يسير أمامنا، كان الطقس باردًا ورطبًا، ولم تشرق الشمس بعد، ورغم أننا لم نكن نرى أمامنا أكثر من عشر خطوات بسبب الضباب الكثيف الناتج من بحيرة شفاتية؛ كان دليلنا عارفًا بالطريق ولم يختلط عليه الأمر، سرنا فى هذا الوضع لمسافة ثلاث ساعات، بعد ذلك سطعت الشمس، وبدأ الضباب ينقشع شيئًا فشيئًا، وإلى الأمام لمسافة ساعة إلا ربع بدت لنا الملاحة وكأنها بحيرة كبيرة.

وبعد أن عاينا الملاحة تحركنا فى تمام الساعة السادسة والنصف، وبعدها بثلاث ساعات وصلنا رزازة، استرحنا هناك ساعة، وبعدها وصلت لكربلاء وقت الأذان.

ومما هو معلوم أن الهند وإيران ترسلان الأشياء القيمة والمجوهرات لضريح الإمام الحسين، تحفظ كل تلك الأشياء فى غرفة الخزين الواقعة بالضريح.

وقبل تحركنا من كربلاء للعودة إلى بغداد يوم الجمعة الموافق الثانى والعشرين من شهر أكتوبر، أرسلت خبرًا إلى السيد جواد أفندى خازن الضريح أستأذنه فى رؤية تلك الخزينة لو أمكن ذلك، وعندما وافق ذهبت لغرفته الواقفة بفناء الضريح فى تمام الساعة الخامسة، كان يسير أمامى، فتح باب إحدى الغرف الواقعة بالصحن، وقال لى توجد هنا الهدايا المختلفة، وعلى الرغم من أن الغرفة كانت مظلمة ولم أتمكن من رؤية أى شىء؛ فإننى خمنت بأن الهدايا كانت مرصوصة على الأرفف، خرجنا من هنا، ودخلنا الضريح، وفتح لى أحد الأبواب بمشقة كبيرة بالمفاتيح الكبيرة التى كانت فى يده، وكان يوجد بأحد أركان الغرفة صندوقان كبيران من الخشب، قال لى: هنا توجد كل المجوهرات والأشياء الذهبية والفضية، وهذه الصناديق مختومة بخاتم رئيس حسابات أوقاف بغداد وخاتمى. ثم أظهر لى صندوقًا آخر كان به قطع من القماش المطرز بالذهب والفضة، وبعض الرايات والستائر المطرزة، وكنت قد أخذت معى قلم رصاص ومفكرة لأسجل كل ما يمكننى تسجيله من الأشياء التى أراها، وكان الرجل يظهر لى الصناديق المغلقة أيضًا، وكأننى أتيت لأتحقق من وجودها أم لا.

وبعد أن نلت شرف زيارة الضريح مرة أخرى، ودّعت السيد جواد أفندى، ثم تحركت من كربلاء فى تمام الساعة السادسة، وفى تمام الساعة الحادية عشرة وصلت للتكية البكتاشية الواقعة فى المحلة المواجهة تمامًا للمسيب، وقضيت بها تلك الليلة، ثم تحركت فى تمام الساعة الواحدة من صباح اليوم التالى، ووصلت بغداد فى اثنتى عشرة ساعة.

طاق كسرى(1)

يقع ضريح سلمان بك وطاق كسرى، أى أطلال (المدائن) التى كانت مركز إدارة الملوك الساسانيين القدماء، على ضفاف نهر دجلة فى المنطقة التى تبعد عن بغداد بست ساعات، ولزيارة تلك الأماكن أخذت اثنين من رفقائى مساء يوم

---

(1) طاق كسرى: أو إيوان كسرى وهو الأثر الباقى من أحد قصور كسرى أنوشروان يقع جنوب مدينة بغداد فى موقع قطسيقون الذى يقع فى منطقة المدائن فى محافظة واسط بين مدينة الكوى ومدينة بغداد. (المترجم)

السبت الموافق السابع من شهر ديسمبر، وركبنا السفينة التابعة لشركة لنج التى تذهب إلى البصرة، وتحركنا من بغداد فى تمام الساعة الرابعة مساءً.

كانت مياه نهر دجلة قليلة؛ لذا رست السفينة على الرمال أمام مكان يسمى (غرارة)، وذلك بعد تحركنا بساعة ونصف، ولو كنا قد ذهبنا مباشرة إلى طاق كسرى بدون أى عوائق لكنا قد وصلنا إلى الطاق فى تمام الساعة العاشرة، ولكننا قضينا ساعتين فى الصحراء بدون أى عمل؛ لذا وجدت هذه فرصة لأخلد للنوم قليلاً فى السفينة، ولهذا كنت مسرورًا من رسو السفينة على الشاطئ، ولكنى لم أستطع أن أغمض عينى بسبب ضوضاء الطوائف والسلاسل الحديدية والهلب الذى ألقوه فى الماء حول السفينة، لإنقاذها، وبعد ساعة ونصف تخلصنا من هذا الوضع، وسارت السفينة، ووصلنا الطاق فى تمام الساعة الحادية عشرة، ولأن السفن الذاهبة للبصرة لم تكن تتوقف أمام الطاق؛ فقد ركبنا السفينة بعد أن وعدنا القبطان بأنه سيقف لنا خصيصًا وسينزلنا أمام الطاق، حقيقة، كان القبطان رجلاً كريمًا صادقًا فى وعده؛ إذ توقف بالسفينة أمام الطاق وأنزل لنا الفلوكة لتوصلنا إلى البر.

وعلى الرغم من أن هذا المكان الواقع على الضفة اليسرى لنهر دجلة كان عبارة عن صحراء خالية؛ فإنه كان يعد مركز ناحية وكان له مدير، كانت الرياح قوية وباردة؛ إذ بقى على بزوغ الفجر ساعتان فقط، ذهبنا إلى مقر مدير الناحية الذى كان يظهر إلى الأمام قليلاً، طرقنا عليه الباب وظللنا عنده حتى الصباح، وبعد طلوع الشمس ذهبنا لزيارة ضريح سلمان بك، وطاق كسرى.

كان الضريح عاديًا، وهو عبارة عن كوخ مهمل، أما إيوان كسرى فهو بناء غاية فى الضخامة بنى من الحجارة، وفى وسطه يوجد قبو بارتفاع خمسة وستين قدمًا، وعرضه أربعون قدمًا، كان هذا القبو يرى من على مسافة أربع ساعات، أما ركائز ودعامات الحوائط فكانت من خشب الصندل ذى الرائحة النفاذة، ولكنه اليوم من الأبنوس، والمكان الذى تصدع فى هذا الإيوان عندما ولد الرسول

(ﷺ) لايزال موجودًا ومشهورًا حتى اليوم، وحول هذا الإيوان توجد آثار وأطلال مدينة المدائن، وقد عثرت فى أرضية تلك الأطلال على قطع صغيرة من الأحجار الملونة المشغولة بالقاشانى.

وكنا قد أرسلنا حين تحركنا من بغداد دوابنا برا إلى طاق كسرى لنعود بها من هناك، وصلت تلك الدواب فى تمام الساعة الرابعة، وتحركنا فى تمام الساعة السابعة والنصف بعد تناول الطعام، وإلى الأمام على مسافة ساعتين ونصف وصلنا إلى نهر ديالة أحد الأنهار الكبيرة التى تصب فى نهر دجلة، عبرناه بالقوارب، ووصلنا بغداد مع غروب الشمس.

وغروب الشمس فى البلدان الحارة وخاصة بغداد، يكون منظرًا بديعًا يستحق المشاهدة، وقد ظهرت فى الأفق الغربى للسماء الكثير من الألوان والأشكال الغريبة بداية من الساعة الحادية عشرة مساء وحتى الثانية عشرة والنصف، أما أشجار النخيل فقد كانت تبدو فى الأفق وكأنها قد نقشت على وجه السماء الذى أصبح كقماش الأطلس المزركش بالألوان المختلفة، وبعد الغروب أعطى ضياء الأفق لونًا لطيفًا على وجه السماء كان بمثابة الفجر الشمالى.

فخامة

كان كاظم باشا، الذى أظهر لى مزيد عنايته وكرمه عندما حللت على بغداد، متصرفًا على مزرعة بناحية تسمى (فخامة) تعلو بغداد بساعتين، كان كاظم باشا يذهب لتلك المزرعة بين الحين والآخر، ويقيم هناك لعدة أسابيع، وقد ذهبت إلى فخامة مع بعض الأحياء بناءً على دعوته، وكانت أول مرة أذهب فيها إلى هناك، حيث ذهبت فى يوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر، وقضيت هناك ليلتين، ثم عدت إلى بغداد، وكان هناك عزيز أفندى ناظر الأعشار، وحسن رضا أفندى الدفتر دار، ورئيس الكتاب رأفت بك، ورشيد باشا متصرف حلة السابق، ونجيب وعزيز وبهجت بك، ورائف أفندى البكباشى، وعبد الله أفندى أمين الصندوق السابق، ولا تزال ذكرى الأوقات الجميلة التى قضيتها هناك عالقة فى ذهنى.

الحلة[1]

تحركت من بغداد قاصدًا الحلة يوم السبت الموافق الأول من شهر مارس لعام ١٣٠٢رومية، وعلى الرغم من أن طريق الحلة هو نفسه طريق المسيب الذي سلكته عندما كنت ذاهبًا إلى كربلاء؛ فإنه ينفصل لجهة اليسار عند خان الإسكندرية قبل الوصول إلى المسيب.

ولأننى وصلت إلى خان الإسكندرية مساءً فقد أقمت ليلتى هناك.

كانت الغرفة التى أقيم فيها مليئة بالبعوض، كان منها ثمانى أو عشر بعوضات تتجول فى الحجرة، ثم بدأت فى الاصطدام بوجهى وعينى، وقد أغلقت الثقوب التى تأتى منها بورق الجرائد وقطع القماش، وعلى الرغم من أننى بدأت أخلد للنوم بعد أن قضيت على هذه الحشرات؛ فإننى لم أستطع ذلك لأن هذا الوقت من السنة فى هذه المنطقة تبدو فيه الحرارة وكأننا فى شهر مايو وليس شهر مارس؛ لذا بدأت أصوات الضفادع والثعابين تأتى من الخارج، كما أن الحشرات السوداء بمختلف أنواعها بدأت تسير على الحوائط؛ مما جعلنى لا أستطيع النوم فى هذه الغرفة، التى كانت تشبه سفينة نوح، على أى حال، قضيت الليلة، وفى صباح اليوم التالى تحركت من هناك، وبعد ثلاث ساعات فى الطريق نصبت خيمة وتناولت فيها طعام إفطارى، ثم سرت للأمام ساعتين أيضًا ووصلت مكانًا يُسمى (محاول)، استرحت هناك قليلاً، والمسافة من خان الإسكندرية حتى خان محاول خمس ساعات، ومن محاول وحتى الحلة ثلاث ساعات.

وتبعد محاول ـ وهى مركز إحدى المديريات هناك ـ عن الطريق مقدار ساعة إلى جهة اليسار، وتقع أطلال (بابل) على يمين الطريق الذاهب من محاول إلى

(١) الحلة: مدينة عراقية ومركز محافظة بابل تقع على بعد ١٠٠ كم جنوب بغداد بناها صدقة ابن منصور أمير إمارة بنى مزيد عام ٤٩٤هـ / ١١٠١م وتقع بمواجهة مدينة الجامعان أو الجامعين على نهر الفرات بالقرب من حضارة بابل القديمة وسميت بحلة بنى مزيد أو الحلة السيفية اختيرت العاصمة الثقافية للعراق عام ٢٠٠٨م لما تتمتع به من كثرة التجمعات الثقافية والمعارف الفنية وكذلك المواهب العربية فى جميع ميادين الثقافة والفن من شعر وغناء وموسيقى. (المترجم)

الحلة، وعلى الرغم من أننى توجهت إلى هذا المكان لرؤيته قبل الدخول إلى محاول: فإننى لم أتمكن من المرور من الجداول المائية التى كانت تروى الأراضى الزراعية، فرجعت إلى الطريق مرة أخرى، ووصلت الحلة بعد العصر.

والحلة متصرفية مهمة على نهر الفرات، ولأنها تقع على ضفتى النهر توجد بها مجموعة من الجسور الخشبية التى لم أر لها مثيلاً قبل ذلك، ومنذ عدة سنوات كانت مياه نهر الفرات تتجه فى قناة تذهب لنواحى (هندية) و(الكوفة)، ونظرًا لقلة المياه بدرجة واضحة فى المجرى الأصلى الذى كان يمر من أمام الحلة بسبب تغيير مجرى النهر؛ فقد جفت الكثير من حدائق النخيل، وفكر الأهالى فى ترك المدينة بسبب هذا، ولكن الحكومة السنية أنشأت سدا تكلف ستين ألف ليرة لإرجاع المياه إلى مجراها الأصلى.

بابل[1]

وفى تمام الساعة السادسة لليوم التالى لوصولى للحلة ذهبت للتنزه فى أطلال (بابل) برفقة سليمان أفندى رئيس حسابات اللواء، ولم يعد موجودًا اليوم من أطلال تلك الخرابة الكبيرة سوى حائط أو اثنين بنيا من الآجر الضخم، وقد بنيت المنازل فى القرى والقصبات المجاورة من الأحجار التى أخرجت من تلك الأطلال، وبأرض الخرابة يوجد تمثال لأسد من الحجر الأحمر، وكذا أحجار أبنية مربعة الشكل بنيت بالتركيب من نوع أو اثنين من الرمال وبقايا الأحجار، وبخلاف ما ذكرناه لم نر شيئا آخر.

خرجنا من هناك وذهبنا إلى قرية تسمى (برنون) تقع على ضفاف نهر الفرات، وهناك جلسنا لنستريح فى حديقة شخص من أشراف الحلة يدعى على جلبى، وبعد أن تناولنا الطعام، ذهبنا إلى الحلة فى ساعة ونصف، كانت القرى الكبيرة الآهلة تنتشر على ضفتى ساحل الفرات، حتى إن قريتين منها ـ كانتا تسميان (توارج) و (جمجمة) ـ كبيرتان مثل القصبة.

---

(١) بابل: اسم بابل يعنى: بوابة الإله، وهى مدينة عراقية كانت عاصمة البابليين أيام حكم حمورابى وتقع على نهر الفرات. (المترجم)

الكفل والكوفة

تحركنا من الحلة لزيارة النجف الأشرف يوم الثلاثاء الموافق الرابع من شهر مارس، وبعد خمس ساعات وصلنا إلى قرية تسمى (الكفل) نظرًا لوجود ضريح (ذى الكفل) عليه السلام بها، وعلى الرغم من كونها قرية صغيرة؛ فإن ضريح ذى الكفل يعد من المزارات الكبيرة لليهود، استرحنا مقدار ساعة فى منزل صالح دانيال أفندى الذى يعد من أصحاب رءوس الأموال اليهود فى بغداد، والذى اختار الإقامة فى قرية ذى الكفل؛ لأنه يشتغل بزراعة كل أراضيه هنا، وبعد أن زرنا ضريح الخضر (عليه السلام) وأطلال الجامع الشريف الذى هو من آثار العرب هناك، تحركنا من ذى الكفل متوجهين للكوفة، ورغم أن قرية الكفل بعيدة عن قناة المياه، فإن المياه لا تدخل فى مجرى تلك القناة بسبب تحويل مجرى النهر إلى جهة هندية كما ذكر سابقًا، وبالتالى تفيض المياه فى تلك النواحى، وهو ما أدى لظهور بحيرات وجزر كبيرة بين الكفل والكوفة.

وصلنا إلى الكوفة فى ساعة ونصف بسبب شدة تيار المياه، كانت صفحة المياه مملوءة بالقوارب التى يركبها العديد من الزوار العرب الرجال والنساء، الذاهبين لزيارة النجف الأشرف.

النجف[1]

النجف مدينة كبيرة إلى حد ما، وهى محاطة بسور، وترى القبة المذهبة لضريح سيدنا على من خارجها، وتعد مركز قائمقامية كربلاء.

وفى حين أن مساحة الصحراء الواقعة بين النجف والكوفة مساحة صغيرة؛ أنشئ برج على مسافة كل عشر دقائق بسبب تعدى العريان على الزوار؛ ولأن الحالة الأمنية اليوم جيدة فقد نقل هؤلاء الجند وأشرفت الأبراج على الخراب، وخارج المدينة عبارة عن صحراء خالية من العمران، ولأن أرضها مرتفعة؛ لم تتم

---

(١) النجف: مدينة النجف أو النجف الأسرف من المدن الشيعية المقدسة تقع فى محافظة النجف فى العراق قرب الكوفة والحيرة، ومعنى كلمة النجف: هو المكان الذى لا يعلوه الماء. يوجد بها ضريح الإمام على بن أبى طالب. (المترجم)

زراعتها بسبب عدم التمكن من الاستفادة من مياه نهر الفرات، وكل ما بداخل القلعة عبارة عن بيوت، ولا يوجد بها حدائق أو بساتين.

قضيت تلك الليلة فى منزل عباس أفندى الموظف بإدارة الديون العمومية، وفى صباح اليوم التالى الموافق الأربعاء زرت مشهد الإمام على، الذى يشبه إلى حد كبير مشهد الإمام الحسين فى الشكل وطراز البناء، إلا أن وجه الاختلاف الوحيد أن مشهد الإمام على بحوائطه الخارجية لوحات ذات إطارات، وبداخل الضريح يرى من إحدى النوافذ قبر محمد شاه القاجارى، أحد شاهات إيران، وزوجته، وتوجد على تلك القبور رسوم ونقوش حفرية.

والنجف مثل كربلاء تماماً، يجلب الإيرانيون جنائزهم إليها ويدفنونها هناك، ويملأ الزوار العرب كل أطراف المدينة وفناء القبر، تجولت فى سوق المدينة قليلا واشتريت مسبحة من أحد البائعين، علمت أنها مصنوعة من حجر يجلب من الهند؛ لأنه ليس موجوداً هنا، بعد ذلك تناولت طعامى ونزلت إلى الكوفة.

وكان صالح دانيال أفندى قد وعدنى بأنه سوف يرسل قاربه للكوفة لأخذى من هناك، وعندما ذهبت إلى الميناء ووجدت قارباً لونه أزرق يقف بين القوارب ظننت أنه قارب صالح أفندى؛ لأنه كان يشبهه فى اللون، فركبت فيه ووصلت إلى الكفل فى وقت المساء، ضيفنا دانيال أفندى فى منزله، ودعانى إلى الطعام شخص يدعى الحاج (ضرب) متولى ضريح ذى الكفل، تحركت من الكفل فى يوم الخميس التالى، ووصلت الحلة فى خمس ساعات، وبعد أن استرحت قليلاً وتناولت طعام الإفطار وصلت إلى خان محاول فى المساء، قضيت الليلة هناك وفى اليوم التالى تحركت من محاول قاصداً بغداد مباشرة.

وإننى أتقدم بالشكر والعرفان لكل الأحباء والأصدقاء الذين أحسنوا مقابلاتى فى بغداد عندما كنت بها، ومنهم: وكيل نقيب الأشراف السيد سلمان وإخوته عبد الرحمن أفندى وجميل زاده محمد أفندى ومصطفى أفندى وابنه عيسى أفندى ودرويش أفندى ابن حيدرى، ومحمد أفندى الزهاوى مفتى بغداد، وشاكر أفندى الألوسى، وعبد الرحمن أفندى ابن باجى جى، وحسين بك من أسرة البابانيين،

وإسماعيل أفندى ابن دفترى، ومحمد بك ابن ربيعى، وسليمان بك متصرف البصرة الأسبق وغيرهم من الأشخاص.

وقد سررت جدا من مقابلتى بالسيد يحيى نزهت أفندى متصرف البصرة الأسبق الذى اختار الإقامة فى بغداد وله الخدمات الجليلة فى كل أرجاء العراق أثناء ولاية المرحوم رشيد باشا الكوزلكى الإستانبولى على العراق.

التجارة والزراعة والصناعة فى بغداد

تنقسم أراضى العراق إلى مجموعة مقاطعات، وبكل مقاطعة منها قناة كبيرة تتسمى باسمها، ويتشعب من تلك القناة عدة ترع صغيرة لرى الأراضى، يقولون على تلك الترع الصغيرة (خرق).

وقد ذكرنا قبل ذلك أننا رأينا فى كل مكان بالصحراء الكثير من القنوات الممتلئة بالرمال، وعلى الرغم من أن تلك القنوات تحال من قبل الحكومة إلى المتعهدين - بطريق المزايدة ـ ليحفروها ويعمروا المقاطعات هناك؛ فإن إعمار المقاطعات أمر يتوقف على العمال، ويحتاج إلى الأهالى، وسكان العراق بالنسبة لمساحتها الكبيرة قليلون جدا.

أما المقاطعات والأراضى الآهلة حاليًا فهى ملك لمجموعة من الأثرياء، ويشتغل الفلاحون عندهم نظير جزء من المحصول، ولأن ما يصل للفلاحين قوت بسيط لا يكفيهم؛ يشتغلون فى بعض الأعمال الأخرى كبيع التراب، وهم بذلك لا يرتبطون بالمكان الذى يعيشون فيه.

هذا فضلا عن أنهم يعيشون فى الخيام أو فى الأكواخ المصنوعة من الخوص والغاب فى أراضى الأغوات الذين يعملون عندهم، الأمر الذى يجعلهم عندما يسأمون من صاحب الأرض؛ يجمعون متاعهم بسهولة وينتقلون إلى مكان آخر، ولهذا لن يصبح من الممكن أبدًا إكثار عدد سكان العراق.

أما بالنسبة للقوة الإنباتية للأرض فيمكننا القول إن حبة القمح الواحدة تعطى ثمانين أو تسعين حبة، وعلى هذا فإن المشتغلين بأعمال التصدير خارج البلد قليلون لدرجة يمكن القول معها إنهم غير موجودين.

أما ولايتا ديار بكر والموصل فهما محرومتان من تجارة تصدير البضائع إلى الخارج، فالمتبقى من المحصول فى تلك المدن يخزن فى المخازن، وإذا ما ظهر الغلاء أو القحط فى أية مدينة مجاورة يرسلونه إليها بأسعار مضاعفة.

فى الحقيقة، إن مسألة بعد ديار بكر والموصل عن البحر حرمها من التصدير، أما بغداد والبصرة فهما من المدن التى تتمتع بسير السفن وتستفيد من ذلك، كما أن أراضيهما قوية من حيث الإنتاج؛ وهو ما يدعو للتأسف بسبب عدم تصدير البضائع عندهم.

والمحصول الرئيسى بالبصرة هو التمر؛ لذا فإن تصديره يتم بمعرفة التجار الأجانب، فى حين أن التمر يدر دخلا سنويا للدولة يزيد عن مئة وخمسين ألف ليرة، ولو أن السفن الأمريكية والأوروبية الخاصة لم تأتِ لتشترى التمر فإن الأهالى لا يستطيعون بيعه وبذلك يفسد المحصول.

وأحيانًا يتعرض المحصول الزراعى فى العراق للآفات، وعلى الرغم من أن الحكومة لا تقصر فى مكافحة هذه الآفات؛ فإن محو تلك الآفات ـ كلية ـ منوط بإتلاف البذور التى بقيت فى الأرض، ومسألة البحث عن البذور التى بقيت فى الأرض مسألة غاية فى الصعوبة؛ نظرًا لاتساع الصحراء، ومع كل ما ذكرنا، فإن المحاصيل، حتى فى السنوات التى تتعرض فيها للآفات، تكفى الأهالى وتزيد عن احتياجاتهم.

وفى الوقت نفسه الذى نجد فيه كل أراضى المنطقة الواقعة بين نهرى دجلة والفرات المعروفة باسم (مازو بوتامى) مزروعة، نجد المياه القادمة مع فيضان النهرين تذهب للقنوات لسقى ورى الأراضى، ولأن تلك القنوات فى الوقت الحالى قليلة جدا، فإن معظم المياه تتجه إلى المناطق السفلى، وتحدث ما يعرف بالأخوار والمستنقعات.

وتصاب القرى والقصبات الواقعة على ضفتى النهر، وخاصة مدينة بغداد، كل عام من جراء الفيضان، ولحماية بغداد من الفيضان تمَّ إنشاء السدود على طول مجرى النهر، ولأن تلك السدود مبنية من الآجر والطين؛ تصرف عليها كل عام

الكثير من الأموال لتدعيمها، ومع هذا لا تتحمل السدود فيضان المياه فتتهدم، أو تتخطاها المياه لتغمر الصحراء فتحيط بالمدينة من خلفها.

وينتج عن هذا الماء المتراكم تلوث بالهواء يؤثر على الصحة العامة هناك؛ لأن الفيضان عندما ينتهى وتنسحب المياه من الأراضى التى زحفت عليها تبقى الأسماك والضفادع النافقة التى تتعفن بسبب حرارة الشمس، فتنشر الحمى، وأحيانًا الكوليرا بين الأهالى.

ولم يكن نفع الفيضان للمزروعات ينحصر فى رى الأراضى فحسب، بل كان له نفع آخر عظيم يتمثل فى الطمى الذى يبقى فى الأراضى بعد الفيضان ويسمونه (دهلة)، فكان الفلاحون ينثرون الطين بعصا صغيرة وينثرون البذور، التى كانت تبدو وكأنها تقف على الأرض، ثم تأتى الدهلة مع الفيضان فتغطى تلك البذور فى باطن الأرض.

والمحاصيل الزراعية فى العراق كثيرة كاللوبيا والبامية والقثاء والخيار والبنجر والبطيخ والعجور، ويزرع الأرز على حسب وجود المستنقعات.

أما الصناعة فى بغداد فتنحصر فى المنسوجات، ويتعيش منها الكثير من الأهالى، كما يشتغل بعض التجار بتصديرها من بغداد إلى الحجاز وسائر البلاد الأخرى، وتتمثل تلك المنسوجات فى الملاءات الحريرية والكوفيات والعباءات والجبب، ومع هذا فعمل أنوال النسيج متوقف على استيراد القطن والحرير من الهند، ونظرًا لأهمية وكثرة بيع المنسوجات؛ يلزم وجود مصانع للحرير، وما يدعو للتأسف، عدم محاولة أى شخص تأسيس مثل هذا المصنع، لاسيما وأنه يوجد فى بغداد الكثير من الأثرياء أصحاب رءوس الأموال، ولكنهم لا يريدون الاستفادة من مثل تلك المصانع، وذلك لأن المواد الخام اللازمة لمثل تلك المصانع وهى القطن والحرير يمكن أن توجد بسهولة فى إقليم كالعراق، كما أن معدن الفحم موجود بكثرة فى نواحى هيت وصلاحية، ومع الأسف، لا يوجد شخص واحد يحاول تأسيس شىء لم يره قبل ذلك.

أما المفروشات من القطيفة الخراسانية، والتى كانت تعد من أجمل ما ينسج فى بغداد، فقد أصبحت فى حكم غير الموجودة، وقد ذهبت لرؤية الخان الذى كان يقوم بتصنيع وبيع تلك الأشياء قديمًا، فوجدت أن الخان به مئة غرفة وحانوت تقريبًا منها ثمانية أو عشرة مفتوحة والباقية مغلقة، هذا فضلاً عن أن المفتوح منها لا يوجد به أثر للقطيفة، ولم أجد مفرشًا من الحرير إلا فى حانوت أو اثنين منها، والحوانيت الباقية كانت تبيع الأقمشة الصينية والهندية، فسألت: ألا يوجد أشخاص يصنعون القطيفة حاليًا؟ فأجابونى قائلين: إن مثل تلك الأشياء لا تصنع حاليًا، ولا يوجد سوى شخص واحد فقط من الذين يستطيعون عملها، ولكنه أصبح مسنًا فأغلق حانوته ومشغله ويقيم حاليًا فى منزله.

حقيقة لقد تأسفت كثيرًا على هذا.

وبخلاف أعمال النسيج يوجد فى بغداد بعض الحرف والصناعات الموجودة فى كل أرجاء الممالك المحروسة كصناعة الحديد والسراجة والجلود وغيرها، ولا يوجد فرق بينها وبين البلدان الأخرى، وقد تحدثت عن تجارة الخيل قبل ذلك، والضأن والأبقار كبيرة فى بغداد، وتتكاثر الأغنام كل عام حسب موسمها.

أما بالنسبة للفاكهة فى العراق فيأتى التمر على رأسها، وبها أيضًا ما يزيد عن ستين نوعًا من الفاكهة المختلفة، ويقومون بتجفيف بعضها، وبعضها لا يمكن تجفيفه، حيث يباع ويؤكل وهو طازج، ومن أنواع التمر الجيدة الموجودة هناك (الحصطاوى) و (السكرى) و (المختوم)، وعلى الرغم من أن البرتقال والليمون كثير فى بغداد فإنه لا يوجد بعد انتهاء موسمه، والعنب نادر للغاية، وبمنطقة (خالص) التابعة لقضاء خراسان التابع لبغداد نوع من العنب يطلقون عليه (دس العنز) يشبه الإصبع، حبته كبيرة وشكلها جيد، ولكنه ليس لذيذًا ولا ماء به، ويعد قضاء خراسان حديقة الفاكهة لبغداد، وبناحية (شهربان) التابعة لهذا القضاء أيضًا نوع من الرمان لذيذ وكبير للغاية لم ير له مثيل.

الأحوال والعادات الخاصة ببغداد

ينهمر المطر فى بغداد فى فصل الشتاء، ولا ينزل بها ثلج إلا مرة كل خمس عشرة أو عشرين سنة، وفى صباح يوم الأربعاء الموافق الرابع عشر من شهر

فبراير لعام ١٣٠٢رومية تساقط الثلج على العراق لمدة ساعتين، كانت القطعة منه فى حجم رأس الطائر، لدرجة أن نهر دجلة تجمد من ديار بكر وحتى جزرة .

وشهر مارس فى بغداد هو بداية الربيع، ويبدأ الحر فجأة فى شهر أبريل، وتبلغ درجة الحرارة فى أواسط شهر أبريل ثمانى وثلاثين درجة، وكما أنه لا يمكن النوم تحت الأسقف فى ليالى الصيف لا يمكن أيضًا الإقامة فيها فى النهار، فيجلس الأهالى فى الفناء المحيط بالمنزل والذى يسمى (طرامة) حتى الساعة الثالثة أو الرابعة صباحًا، ومن وقت الظهر وحتى العصر يجلسون فى السراديب التى تقع أسفل المنازل، وفى المساء يصعدون إلى الأسطح وينامون عليها، وفى أوقات النهار يقومون برش المياه داخل السراديب وفى أفنية المنزل ويؤسسون (أغوالاً) بين أعمدة الطرامة والسراديب، والأغوال اسم أحد أنواع الشوك البرى، الذى يوضع بين فرعين من أفرع النخيل، ولأن تلك الأفرع توضع فى مهب الرياح فإنها تزيل حرارة الجو كلما سقيت بالمياه، وبخلاف الأغوال المذكورة يوجد عندهم مراوح ضخمة يطلقون عليها (بانقة) تعلق على السقف، ومواقد تسمى (بادكير) تجلب الهواء إلى السراديب، ويقوم الخادم الواقف خارج السرداب بشد طرف الحبل المربوط بطرف المروحة فتتحرك، كما توجد المراوح الحصير المصنوعة من أوراق النخيل بكثرة، حيث يعطى لكل زائر يأتى للزيارة مروحة منها قبل أن تقدم له القهوة والسجائر.

وتصنع فى بغداد أكواب وجرار من الطين اللازب، ويطلقون على الأكواب (شريه) وعلى الجرار (تونكه)، يضعونها بالنهار فى الفجوات المسماة (زنبور) فى السراديب، وفى المساء يضعونها على حوائط السقف.

وتبرد المياه بفعل الرطوبة التى فى الزنبور، ومن الهواء الرطب الذى يهب فى المساء. ويصبح طعم مياه نهر دجلة غاية فى اللذة بعد أن توضع فى تلك الأكواب الطينية، كما يوجد مصنع للثلج يعمل بماكينة البخار تحت إدارة البلدية، ويكون هذا الثلج مفيدًا جدا فى بغداد فى أوقات الصيف التى ترتفع فيها درجات الحرارة إلى ثمانى وأربعين أو خمسين درجة، كما يجدد الحياة لمن يحضرون رمضان فى بغداد فى فصل الصيف.

وينام الأهالى فوق الأسطح فى العراء على الأسرة السفارى، ويكثر البعوض فى المنازل الواقعة بين الحدائق والمنازل القريبة من نهر دجلة، حيث تهجم تلك الحشرات على ضوء المصابيح التى تشعل فوق الأسطح وتقلق من ينامون بها؛ لذا يضطر الأهالى لوضع ناموسية على الأسرة، ويجعلون المصابيح بعيدة عنها وذلك مع بداية الغروب، وعندما تزيد درجة الحرارة تهلك تلك الحشرات لأنها لا تتحملها، وحينئذ يستطيع الأهالى أن يجلسوا وينامو فوق الأسطح بكل راحة، لاسيما وأن النسيم يهب على تلك الأسطح فى الليل فيجعلها لطيفة، كما أن ضوء القمر والنجوم الساطعة فى السماء وضوء المصابيح تجعل المنظر فى غاية الجمال؛ مما يجعلهم ينسون حرارة الشمس فى النهار.

وقد وصف حمدى بك مدير المتحف الهمايونى ـ الذى أقام فى بغداد سنتين مديرًا للشئون السياسية هناك- الحرارة فى بغداد قائلاً: «لا يؤكل البيض هنا فى الصيف؛ لأن البيضة بمجرد خروجها من الدجاجة تسلق من شدة الحرارة». فى الواقع إن درجة الحرارة فى بغداد فى فصل الصيف تتراوح بين أربع وأربعين إلى ثمانٍ وأربعين درجة، وقد تصل فى شهر يوليو إلى خمسين درجة، وعلى الرغم من ارتفاع درجة الحرارة؛ فإنها ليست ضارة لعدم وجود رطوبة.

ويظهر العقرب فى بغداد فى شهر يونيو ويستمر حتى أكتوبر، ولا يظهر بالنهار، بل يخرج بالليل، تتجول تلك العقارب فى سراديب المنازل والطرقات وفى الأفنية، وأحيانًا تدخل الغرف، ويندر رؤيتها على الأسطح، وعلى الرغم من أنها تظهر على الأسطح المفروشة بالتراب؛ فإنها لا تظهر أبدًا على الأسطح المفروشة بالحصى، ومن غرائب هذه الحشرة أنها لا تصعد على الأثاث المصنوع من الخشب الأبيض العادى.

ومن المثير للعجب أن هذا العقرب يتحاشى الحراس الذين ينامون بالليل فى الطرقات على التراب، ولأن جلود وأقدام هؤلاء الرجال أصبحت صلبة مثل الخشب؛ فإنهم إما أصبحوا لا يشعرون بلدغ العقرب، أو أن العقرب لا يقربهم.

ومن الغرائب فى بغداد اجتماعاتهم للولائم، وينقل جهاز العروس إلى منزل الزوج قبل عقد القران بيوم، ويكون أمام الجهاز طست مياه كبير من النحاس

المشغول، وفى يوم الخميس التالى لعقد القران تذهب عشرون أو ثلاثون امرأة إلى منزل الزوج، ويأخذنها إلى منزل العريس مترجلات، حيث تتأبط اثنتان منهن العروس وتسير أمامهن ـ بالعكس ـ فتاة صغيرة تحمل مرآة، وطوال الفترة التى تسير فيها العروس تنظر إلى المرآة، ويسير فى المقدمة شخصان يحملان صندوقين صغيرين على رأسيهما، بهذه الصناديق أدوات الزينة الخاصة بالعروس.

أما نسوة الطبقة الثرية فلا يسرن بالطرقات هكذا، بل يعقد قرانها بعد وصولها لمنزل الزوج، والسبب فى ذلك عدم وجود سيارات لنقل العروس.

(وقد ذكرت قبل ذلك أننى ذهبت من قصبة الأعظمية إلى المدينة بالسيارة، هذه السيارة على شكل (المينى باص) ذات عربة واحدة، وقد تأسست شركة لنقل الزوار بين الأعظمية وبغداد على نفس النموذج الذى قام به هدايت باشا، ولا توجد عربيات داخل المدينة سواها)، ولكن الزوج هنا هو الذى يتجول بالموكب ليلاً فى طرقات المدينة، ويطلقون على هذا الموكب (زفة)، وأحيانًا يتكون هذا الموكب من المشاعل والمصابيح وبعض الراقصين والطبول والدفوف، وأحيانًا تكون الطبول مزينة بالشموع على حسب العادات القديمة.

وحفلات النصارى أيضًا غريبة، حيث يجتمع أهل الزوج عند منزل العروس ليلة الزفاف، ويقوم أهل الرجل وأهل المرأة بالتغنى بالأغانى التى تشبه الأوبرا، ثم يأخذون العروس.

ويوجد فى بغداد أنواع متعددة من الآلات الموسيقية، الأول منها الطبول التى يستخدمها عامة الشعب، حيث يقومون بالضرب على هذه الطبول عندما يتجولون فى الطرقات فى الأعياد أو فى حفلات الزفاف، ويتجمعون عند بيت أحد الموظفين الكبار أو أحد أفراد الأسرة الحاكمة ويكررون هذا البيت الشعرى باللغة التركية وهم يضربون على الطبول (جورة يانم باغ أولسون فلان أغا صاغ أولسون) ويقصدون من ذلك أن يعطيهم هبة أو منحة، النوع الثانى من آلات العزف السنطور والرباب والدمبوك، إلا أن المغنين هناك صوتهم سيئ للغاية ويبدون وكأنهم يصرخون.

ويدفن الأهالى فى بغداد جنائزهم ليلاً فى فصل الصيف، ويسير الشباب الذين لم يتزوجوا بعد أمام الجنائز وهم يضربون على الدف والقدوم، كما تذهب النساء إلى المقابر، وتقوم النساء بالحداد أسبوعًا فى المنزل الذى به جنازة، وتقوم مجموعة من النساء بالذهاب إلى المنزل الموجود به الجنازة ويظلن يصرخن ويهللن ويذكرن مدحًا وثناءً على هذا الميت ـ بالأجر ـ ويضربن على صدورهن، وهو ما يسمونه (هلهلة) وهى عبارة عن صراخهن ونحيبهن (لولولولو)، وبين تلك الطقوس التى تقوم بها تلك النساء يشربن القهوة والشربات والنارجيلة ويتحدثن مع بعضهن البعض، وتجرى مراسم المأتم هذه فى أول ليلة من ليالى شهر رمضان عن الجنازات التى وقعت فى تلك السنة.

أما آخر يوم أربعاء من شهر صفر فهو بمثابة العطلة والاحتفالات عند عامة أهل بغداد، ويطلقون عليه (جنبر سورى)، حتى الدوائر الحكومية فى هذا اليوم لا يوجد بها أى شخص حيث يخرج الأهالى ـ مسلمين ونصارى ـ خارج المدينة إلى الحدائق والمتنزهات ويقضون اليوم هناك، ولم أستطع أن أفهم لماذا أسموه بهذا الاسم (جنبر سورى)، وكل شخص سألته عن هذا لم يعطنى إجابة معقولة.

ويوجد بين الزوار الإيرانيين الذين يفدون إلى بغداد مجموعة من الأطباء و المنجمين، ويتجول المنجمون وهم يصيحون (قوال، فتاح، فال)، ولأنه ليس هناك ضرر منهم، فلا يوجد من يعترض على ممارستهم تلك الصنعة، وقد تعجبت من السماح لمن يسيرون فى الطرقات خلف الجهلاء ويحملون صندوقًا به بعض الأدوات الطبية وهم يصيحون (الحكيم).

العودة إلى دار السعادة عبر طريق الهند

بعد إلغاء مهمتى الخاصة بالديون العمومية أقمت فترة فى بغداد، وكنت أضيع الوقت فى بعض الأمور والخدمات التى أُسندت إلىّ من جانب الولاية أثناء ولاية مصطفى عاصم باشا، فكنت أنظر فى شئون الدوائر البلدية، وحسابات صندوق الأمن والترامواى، وإحياء وإصلاح مدرسة الصنايع التى كانت فى حكم المعطلة، وبينما كنت أقوم بهذه الأعمال صدرت إرادة سنية بمنحى مصاريف الطريق

لأعود لإستانبول، وعلى حسب الموسم رأيت أنه من الأفضل الذهاب بحرًا بدلاً من الذهاب بالطريق البرى؛ لأن الأمطار تنهمر بشدة هنا بعد شهر سبتمبر، وبناء عليه لم يكن الذهاب إلى حلب بالطريق البرى الذى يستمر لمسافة عشرين أو خمسة وعشرين يومًا سأنام فيها تحت الخيام بالأمر السهل، وبالعكس كان الطريق البحرى مريحًا جدا فى هذا الفصل، فعلى الرغم من هبوب الرياح والعواصف الشديدة فى المحيط الهندى التى يطلقون عليها (براصات) فى الفترة من بداية يونيو وحتى نهاية سبتمبر، فإنها تنتهى بعد شهر سبتمبر، ويظل المحيط الهندى ساكنًا لطيفًا طوال فصل الشتاء.

أعطيت الإذن لرجالى بأن يعرضوا أغراضى للبيع، وفى صباح يوم الجمعة الموافق السابع من ديسمبر عام ١٣٠٤رومية تحركت من بغداد متوجهًا إلى البصرة بإحدى السفن التابعة لشركة (لنج)، وقد سررت جدا عندما رأيت عارف بك قائمقام الأركان الحربية الذى أتى لبغداد فى مهمة مؤقتة خاصة بالأراضى السنية، وأنهى عمله، وسيعود أيضًا إلى إستانبول على نفس السفينة؛ لأنه أيضًا رجَّح الذهاب بالطريق البحرى.

ولأننى كنت مظهرًا لإكرام ومساعدة الكثير من الأشخاص فى الثلاث سنوات التى قضيتها فى بغداد؛ فقد أتى للسفينة لتوديعى الكثير من الأشراف والأعيان والموظفين، وهو ما جعلنى أشعر بالفخر والامتنان.

ولأن المياه كانت قليلة فى نهر دجلة فى هذا الموسم فقد كانت السفينة تسير فترة وتقف فترة أخرى، ولم نتمكن من الذهاب حتى إيوان كسرى إلا فى المساء، قضينا الليل هناك.

وفى اليوم التالى وصلنا حتى (العزيزية)، وفى اليوم الذى يليه غرست السفينة على كومة فى الرمال، واستمر العمل فى تخليص السفينة من هذه الكومة حتى المساء؛ وبذلك لم نتمكن من التقدم من المكان المسمى (بغيلة)، وفى اليوم الرابع عبرنا مكانًا ضحلا فى النهر فى ست ساعات، وبعد أن تخطيناه سرنا بدون توقف حتى الساعة العاشرة والنصف حتى وصلنا (كوت العمارة)، وفى مساء

اليوم التالى مررنا بالعمارة، مركز أحد المتصرفيات التابعة للبصرة، وفى ظهر اليوم التالى الذى كان يوافق الثانى عشر من شهر ديسمبر، وهو اليوم السادس لتحركنا من بغداد، وصلنا (قورنة) التى يلتقى فيها نهر دجلة بنهر الفرات، ووصلنا البصرة بعد الأذان.

البصرة[1]

قد ذكرنا قبل ذلك بالمناسبة أن نهرى الفرات ودجلة بعد أن يتحدا فى قورنة وحتى يصبا فى خليج البصرة الذى يسمى بحر فارس، يصبحان بمثابة النهر الكبير الضخم ويسمى هذا النهر (شط العرب)، ويحدث المد والجزر فى نهر شط العرب، وعلى الرغم من حدوث المد والجزر مرتين يوميا؛ فإنه يزيد فى أوائل وأواسط الشهور العربية، وهو ما يساعد على ذهاب وإياب سفن البحر الكبرى إلى البصرة، وعلى هذا تتحرك السفن الكبرى من البصرة مرة كل خمسة عشر يومًا، وعندما أتينا إلى البصرة كان يوجد جزر، وفى حين كان يوجد مجموعة من الجزر على نهر شط العرب، كان يوجد أيضًا مصايد مصنوعة من الخوص وخاصة بصيد الأسماك، وفى غضون نصف ساعة تدفقت المياه فاختفت كل تلك الأشياء، وأخذ النهر شكل البحر.

ولم تكن مدينة البصرة على ساحل نهر شط العرب، بل كانت على الناحية اليمنى للداخل بمقدار ساعة إلا ربع، وكان يوجد على ساحل نهر شط العرب إدارات الجمارك والبحرية، وحوانيت التجار، ومكاتب السفن، والقنصليات، ويطلقون على هذا المكان (عشار)، وتوجد قناة مياه عامرة ببعض الحدائق والأبنية تتجه من أمام إدارة الجمارك وحتى مدينة البصرة إلى الداخل، ويتفرع من هذه القناة الكثير من الترع التى تتجه صوب الحدائق، وعلى الرغم من أن المد

---

(١) البصرة: عاصمة محافظة البصرة وثانى أكبر مدينة عراقية تقع فى أقصى جنوب العراق على رأس سواحل الخليج العربى، تقع على الضفة الغربية لشط العرب وتبعد عن بغداد ٥٤٥كم لها حدود دولية مع كل من السعودية والكويت جنوبًا وإيران شرقًا تعتبر ميناء العراق الأوحد ومنفذه البحرى الرئيسى، كما تزخر بحقول النفط الغنية ومنها حقل الرميلة وحقول الشعيبة ومجنون. (المترجم)

والجزر يحدث بهذه القناة أيضًا فإنه لا يمنع من ذهاب وإياب القوارب التى تسمى (ساقية) التى رأيتها فى نهر الفرات.

ويطلقون على هذه القوارب هنا (بلم)، وهى أكثر انتظامًا بالنسبة للموجودة فى نهر الفرات، فأرضياتها مفروشة، ومن فوقها ظلة، ولأن أهالى البصرة أصحاب ذوق؛ يركب أهالى البصرة - رجالاً ونساءً - هذه القوارب فى الطقس اللطيف، ويتجولون بها فى النهر من الليل وحتى الصباح وهم يغنون ويمرحون.

وعلى الرغم من وجود سفن للبضائع تذهب من البصرة إلى السويس مباشرة فى وقت محصول التمر؛ فإنه لا توجد سفن تعمل بشكل منتظم، والسفن التى تعمل بشكل منتظم هناك هى السفن الخاصة بالشركة الإنجليزية المسماة (الهند الإنجليزية)، وهى تبحر من البصرة إلى الهند مرتين فى الشهر، وبناء على ذلك اضطررت للذهاب إلى الهند، ومنها إلى السويس بإحدى السفن التى تبحر إلى البحر الأبيض المتوسط، وفى اليوم التالى لوصولنا إلى البصرة ذهبت لمقر الشركة الهندية الإنجليزية بإرشاد قبطان السفينة التى نقلتنا من بغداد، مسيو (قلة منس)، وبعد ثلاثة أيام، وعندما علمت أن السفينة (بوروليا) ستبحر من البصرة إلى بومباى، أخذت تذكرة لقمرة فى الدرجة الأولى، بالطعام، بمائة وثلاث وثلاثين روبية، وذلك بمساعدة المسيو (قلة منس) الذى خفض لى التذكرة ستًا وسبعين روبية، لأن ثمنها كان مائتى روبية، أى ما يعادل خمس عشرة ليرة.

كان والى البصرة الفريق شعبان باشا يقيم فى القصر الساحلى الواقع فى منطقة عشار، وقد ضيفنا ثلاثة أيام فى بيته حتى يوم تحركنا من البصرة، وعلى الرغم من أن طقس عشار كان ألطف من هواء مدينة البصرة نفسها الذى كان يشتهر برداءته؛ فإن الأهالى لم يرغبوا فى الإقامة هناك، فكانت البيوت هناك قليلة، وكما ذكرنا قبل ذلك، لم يكن هناك سوى مكاتب الشركات والقنصليات وحوانيت التجار والإدارات.

وخلال الأيام الثلاثة التى بقيت بها فى البصرة، تجولت فى المدينة، وعلى الرغم من أنها مركز الولاية؛ فإنها مدينة صغيرة غير منتظمة الأبنية والطرقات،

فضلاً عن حرارتها ورطوبتها الزائدة، بها من السكان عشرة آلاف نسمة، ولكن بها من حدائق النخيل الكثير؛ لذا يعد التمر هو التجارة الرئيسية بها، وبسبب الرطوبة والطقس السيئ بها لا يمكن لأهلها أن يناموا فى العراء على أسطح المنازل كما هو الحال فى بغداد، وحمى البصرة مشهورة.

وتأتى السفن الشراعية الكثيرة من سواحل عمان إلى البصرة، وهى سفن تشبه سفن القاليون الموجودة فى الصور القديمة.

حيث يوجد لكل سفينة منها ثمانية أو عشرة صنادل كبيرة، وحافة مجاديفها دائرية مثل مرآة الحلاق، وعندما يجدف المجدفون ينشدون الغزليات العربية الجميلة.

خليج البصرة

وفى وقت السحر من يوم السبت الموافق الخامس عشر من شهر ديسمبر تحركنا من البصرة بالسفينة (بورروليا)، سرنا ساعتين للأسفل، وعندما اقتربنا من (المحمرة) الواقعة فى المكان الذى يصب فيه نهر (قارون) الإيرانى بنهر شط العرب أطلقت قذيفتا مدفع من الساحل، فقد جرت العادة هنا أن تطلق القذائف المدفعية عند وصول سفن البريد لتعلم الأهالى بمجيئها، وبعد أن ظلت السفينة ثلاث ساعات فى المحمرة تحمل البضائع تحركت من هناك، وبعد خمس ساعات مررنا بالمكان المسمى (فاو) الذى ينتهى عنده نهر شط العرب، وبذلك خرجنا إلى البحر.

وعلى الرغم من أن منطقة (فاو) عبارة عن منطقة رملية خالية وبسيطة على يمين مضيق نهر شط العرب، فإنه قد أنشئ هناك مكتب للتلغراف ومجموعة من الاستحكامات المهمة نظرًا لأن موقعها يتحكم فى مدخل النهر، وبعد الفاو يوجد ميناء الكويت على الناحية اليمنى، وهو مرفأ مهم وكبير للسفن، وإلى الأمام قليلاً يوجد خليج البحرين الذى يضم العديد من الجزر، ويوجد بهذا الخليج ميناءا (العجير) و (القطيف) التابعان لمنطقة نجد.

وفى الساعة العاشرة خرجنا من مياه نهر شط العرب الصفراء اللون، وتابعنا مسيرنا فى البحر فى طقس جميل، ولأن الجو كان حارًا للغاية كنت لا أستطيع النوم داخل القمرة ليلاً، وفرشنا أسرتنا على أسطح القمرات، ونمنا فى الهواء الطلق.

بندر أبى شير(١)

وفى صباح يوم الأحد الموافق السادس عشر من شهر ديسمبر بدت لنا جبال السواحل الإيرانية على الناحية اليسرى، ووصلنا بندر "أبى شير" فى تمام الساعة الواحدة والنصف.

وتقع المدينة على سفح الجبال الشاهقة وتنحدر نحو البحر وكأنها نصف جزيرة، ألقت سفينتنا الهلب فى مكان بعيد عن الساحل بكثير، ورأينا هناك سفينة أميرية إيرانية، كانت على شكل سفن البضائع، وهى سفينة من الصاج ذات صاريين واسمها (برسه بوليس).

خرجت للبر مع عارف بك للتجول فى المدينة، وعلى الرغم من أنها مدينة صغيرة وشوارعها ضيقة؛ فإنها المخرج والميناء الرئيسى للمحاصيل والمنتجات الداخلية لإيران، ولا يوجد فى سوقها ما يستحق الذكر سوى الفاكهة القادمة من شيراز كالرمان والعنب الجيد.

وبينما كنا على وشك ركوب الصندل للعودة إلى السفينة، ظهر أمامنا رجل فجأة وطلب من كل شخص ثمانية تومنات كرسم لوثيقة السفر، وعلى الرغم من أننا أطلعناه على وثيقة سفرنا؛ فإنه لم يعترف بها، وأوضح لنا أنه يلزمنا أن نأخذ تذاكر إيرانية، ولأنه كان يصر على طلبه، اضطررنا لأن نجد موظف التذاكر الرسمى، وشرحنا له ما نريد.

كان موظف التذاكر رجلاً عاقلاً يدعى الحاج محمد إبراهيم خان، اعتذر لنا عما بدر من موظفى الميناء ودعانا إلى الشاى والنارجيلة، وأعطى لنا تصريحًا

---

(١) شيراز: مدينة تقع غرب إيران وهى عاصمة محافظة فارس ومقاطعة شيراز تقع على ارتفاع ١٤٨٦مترًا فوق مستوى سطح البحر وسط جبال زاجروس. (المترجم)

مفتوحًا؛ وذلك حتى لا نتعرض لمثل تلك المعاملة إذا ما نزلنا بأية مدينة إيرانية أخرى، ثم عدنا للسفينة بعد أن شكرناه.

ظلت سفينتنا فى بندر «أبى شير» حتى مساء اليوم التالى تحمل البضائع، ثم تحركت من هناك بعد الأذان، تقدمنا مسيرة ساعة إلى الأمام وتوقفنا فى المكان الموجود به الأسطول الإنجليزى فى المياه الإيرانية، وأخذنا أحد أمراء البحرية الإنجليزية ويدعى (برة كن بورى) ثم تابعنا مسيرنا، كان هذا الشخص هو قبطان السفينة الحربية الإنجليزية التى تسمى (تركواز) التى كانت تقف فى ميناء مسقط، كان رجلاً له هيبة، لطيفًا، يعرف عدة لغات، تحدثنا معه حتى وصلنا إلى مسقط، وقد أعطانى معلومات نافعة ومفيدة عن أحوال العريان الموجودين فى مسقط وما حولها.

لينجه

وفى يوم الثلاثاء الموافق الثامن عشر من شهر ديسمبر تابعنا مسيرنا من غير توقف، وكانت جبال السواحل الإيرانية تظهر على يسارنا باستمرار، ومررنا من أمام جزيرة تسمى (شخ شمل)، وفى صباح يوم الأربعاء التالى وصلنا مدينة (لينجه)، كانت تبدو من بعيد مدينة كبيرة وجميلة، نزلت إلى البر، ولكننى رأيتها عبارة عن أطلال مدينة صغيرة عادية مثل بندر «أبى شير».

وتتستر النساء فى لينجه بملاءات سوداء، ومن الغرائب هناك أنهن يعلقن على وجوههن قناعًا من القطيفة السوداء يسمونه (لو) يشبه القناع الذى تعلقه السيدات على وجوههن فى الحفلات، يا ترى هل أخذن هذا النوع من الأقنعة من الأوروبيين؟ أم أن هذا القناع انتقل لأوروبا من هنا؟.

بندر عباس (١)

تحركنا من لينجه الساعة الخامسة والنصف، وتوقفنا مرة أخرى باكر يوم الخميس التالى أمام مدينة (بندر عباس) الإيرانية، كانت هذه المدينة مثل بقية

---

(١) بندر عباس: هى مدينة فى إيران تقع جنوب إيران على الخليج العربى وهى عاصمة محافظة هرمزكان، للمدينة موقع إستراتيجى مهم لكونها تطل على مضيق هرمز. (المترجم)

المدن، إلا أنها تختلف عنها بوجود الكثير من التجار الذين يعبدون الأصنام الذين يطلق عليهم فى الهند (بانيان)، ولهم سوق خاص يبيعون ويشترون فيه.

وبينما كنا عائدين للسفينة بعد أن تجولنا فى المدينة إذ ظهرت أمامنا مشكلة الثمانية تومنات مرة أخرى عند الميناء، وقد نفعتنا التذكرة المفتوحة التى أعطاها لنا الموظف فى أبى شير، واستطعنا أن نعبر بدون مشاكل، ومن الغرائب فى هذه البلدة أنهم يسألون عن جواز السفر أثناء خروج الزائر من البلدة، بينما يسأل عنه بمجرد نزول الزائر إلى البر فى كل مكان.

تحركنا من بندر عباس فى تمام الساعة السادسة والنصف، وإلى الأمام قليلاً من هذا المكان مررنا من أمام جزيرة (هرمز)[1] المشهورة، التى كانت مركزًا لتجارة البرتغاليين الذين كانوا يهددون تلك النواحى ويستولون عليها بسطوتهم قبل ثلاثمائة عام.

وتشكل هذه الجزيرة مضيقًا لخليج البصرة، حيث يخرج منه إلى بحر عمان، والجزيرة اليوم خالية وغير مسكونة، وإلى الأمام قليلاً من الرأس المسماة (رأس مسندم) عند مضيق هرمز توجد قرية كبيرة إلى حد ما تتبع عمان، وتوجد مجموعة من الجزر الصغيرة فى تلك القرية، ويشتغل أهل تلك القرية بصيد اللؤلؤ، وعند الخروج من المضيق إلى بحر عمان تختفى السواحل الموجودة على الناحية اليسرى، وتبدأ السواحل العربية فى الظهور على الناحية اليمنى، وقد وصلنا (مسقط) ظهر يوم الجمعة الموافق الواحد والعشرين من شهر ديسمبر.

مسقط

على الرغم من أن مدينة مسقط تقع على ضفاف البحر داخل قلعة؛ فإن طرفيها محاطان بالصخور الصلبة المرتفعة بطول الساحل، وترى على هذه الصخور الاستحكامات الباقية من عهد البرتغاليين، والتجارة بأكملها فى مسقط فى أيدى التجار الهنود، الذين يعبدون الأصنام الذين يسمون (بانيان) الذين

---

(١) جزيرة هرمز: هى جزيرة إيرانية فى الخليج العربى وتقع فى مضيق هرمز وتتبع محافظة هرمزكان وتبلغ مساحتها ٤٢ كم وتوجد بها قلعة تاريخية برتغالية. (المترجم)

تحدثنا عنهم قبل ذلك، ولأن مسقط سوق لعريان الصحراء؛ يفد إليها الكثير من الأعراب للبيع والشراء، ويتجول هؤلاء العريان دائمًا وهم مسلحون، وسلاحهم عبارة عن السيف والبندقية والخنجر، والشوارع بالمدينة ضيقة للغاية، والمنازل والحوانيت بها غير منتظمة، وخلف المدينة يوجد مكان مستوٍ، ثم تليه الأماكن الخضراء والأشجار والجبال.

ومقر إقامة أمير مسقط، وهو (فيصل بن تركى)، عبارة عن منزل كبير ذى ثلاثة طوابق على الساحل، وعلى السقف توجد راية حمراء مستوية، كما توجد على أول الساحل الأبنية المنتظمة لقنصلية أمريكا والتجار الأجانب.

والمحصول الرئيسى لمسقط التمر، ويصدر إلى الخارج بكثرة، وهى تشتهر أيضًا بالحلوى، ويتم تصديرها من مسقط، وقد اشتهرت مسقط بذلك، وعندما أخبرونى بأن الحلوى هناك جيدة اشتريت منها وأكلت، ولكننى وجدتها غير لذيذة، فتعجبت من ذلك، أما تمر مسقط فهو أسود اللون وطعمه لذيذ للغاية، وينقل إلى أمريكا دون أن يفسد، وكانت تقف فى ميناء الأمير سفينتان إحداهما باسم (سلطانى)، والثانية باسم (سلام).

وعندما وصلنا إلى مسقط، ذهبت مع عارف بك للتجول بالسفينة (تركواز) بناء على دعوة قبطانها مسيو (بره كن بورى) الذى كان يرافقنا رحلتنا من أبى شير.

ولأن الكثير من التجار الهنود كانوا يشتغلون بالتجارة فى مسقط؛ فقد كانت إحدى السفن الأميرية الهندية تأتى بين الحين والآخر، وتتوقف هناك فترة للحفاظ على هؤلاء التجار من تسلط العريان، وبعد أن عدنا للسفينة وتناولنا طعام العشاء أرسل المسيو (بره كن بورى) فلوكة، ودعانا مرة أخرى لسفينته، نهضنا وذهبنا إلى هناك، كانت السفينة مزينة من داخلها بالأعلام ومن خارجها بالمصابيح، كما كان يوجد مسرح على ظهرها، حيث لبس مجموعة من الشباب الذين يطلق عليهم (آسبيران) والضباط الملازمون ملابس النساء، ولعب الضباط الآخرون دورًا آخر وقاموا بتمثيل مسرحيتين كوميديتين، كما قاموا بعمل حفلة

موسيقية، بعد ذلك دعينا لتناول طعام العشاء (صوبة)، وكانت مائدة كبيرة مجهزة لعشرين شخصًا بصالون القبطان بها المأكولات والمشروبات النفيسة، جلس الضباط على المائدة بملابس المسرحية، وقد أنستنا الموسيقى الجميلة والترتيبات والتجهيزات المجهزة بالصالون ولذة الطعام أننا أمام صخور مسقط على بحر عمان، حقيقة، إن مصادفة مثل تلك المدنية والحضارة أمر يدعو للفرح والبهجة، خاصة وأننا رأينا المسرح والموسيقى فى بلد غير متحضر مثل مسقط، وكما أن تناول أندر وألذ المأكولات والمشروبات من الأمور التى لا تخطر على البال فى مثل هذا المكان فإن الأمور الأخرى مثلها لن تخطر على البال.

وبينما كنت أتجول فى المدينة فى اليوم التالى، رأيت أحد أبواب منزل الأمير مفتوحًا ويجلس عنده حارس من العرب، قال لى: "يوجد فى فناء المنزل حيوانات مفترسة لو تريد أن تشاهدها، تعال". فدخلت، ثم أغلق الباب، نظرت فى فناء المنزل فماذا رأيت؟ رأيت لبؤة ترقد فى أحد أركان الفناء بدون رباط أو سلاسل، كانت عيناها مصوبتين إلىَّ، كنت أنظر بخوف شديد، ثم هرعت إلى الباب فأغلقه العربى بيد، ومد يده الأخرى مطالبا إياى بالنقود، فألقيت النقود فى وجهه، وأمرته بفتح الباب ففتحه، فألقيت بنفسى فى الشارع، ولما رأيت صاحب الحانوت المواجه للمنزل يبتسم أدركت أننى لم أكن أول من يدفع النقود بهذه الطريقة.

وعندما عدت للسفينة وجدت ضباط السفينة (تركواز) جاء لزيارتى.

تناولنا طعام الغداء معًا، وبعد الطعام أتى المسيو (بره كن)، فودعتهم جميعًا، وتحركنا من مسقط الساعة العاشرة والنصف قاصدين (كراجى) التى تعد أهم مدينة فى إقليم السند الهندى، ظللنا فى مياه المحيط الهندى يومين وليلتين لم نر اليابسة قط، حتى عبرنا إلى الساحل المقابل للمحيط، ووصلنا ميناء كراجى مع وقت السحر من يوم الثلاثاء الموافق الخامس والعشرين من شهر ديسمبر.

كراجى

ميناء كراجى ميناء مهم وكبير للغاية، لدرجة أننا سرنا بالقارب الشراعى من السفينة وحتى الرصيف الكبير المجاور للجمرك فى ساعة إلا ربع، كانت المدينة

بعيدة عن الميناء، أما الرصيف الذى كان يعد بمثابة الميناء فقد كان جديرًا بالمشاهدة لكبره؛ والسفن التى تحمل وتأخذ البضائع على النقاط المختلفة فيه؛ والقطارات التى تغدو وتروح على السكك الحديدية، ولأن كراجى كانت تتسع يومًا بعد يوم فقد بنى حى جديد بين المدينة والميناء، به الشوارع المنتظمة والواسعة للغاية والمبانى العالية الضخمة، مررنا من هذا الحى الجديد بالسيارة ووصلنا المدينة بعد نصف ساعة، كانت المدينة منتظمة أكثر من الحى الجديد، ولأن المنازل التى أنشئت فى معظم أجزاء المدينة على الطراز الصيفى وكل منزل منها يقع داخل حديقة، كما يوجد فاصل بين المنزل والآخر، فإن هذه المدينة التى تضم مائتى ألف نسمة تبدو وكأنها تضم أضعاف هذا العدد من السكان.

ذهبنا لمنزل شخص يدعى حسن على بهادر من أعيان كراجى، الذى كان يقوم بوظيفة وكيل التجار الفخرى للسلطنة السنية، وقد أكرمنا كثيرًا، ثم دعانا لتناول طعام العشاء معه، تجولت فى المدينة مع عارف بك رفيقى فى الرحلة، وزرنا الأماكن التى تستحق المشاهدة، وخاصة المعابد الكبرى لطائفة البانيان، ثم تقابلنا ثانية مع حسن بهادر الساعة العاشرة، أخذنا إلى عربته، حيث اصطحبنا إلى حديقته ومدرسته الإسلامية الكبرى التى أنشأها بجهوده فقط، وبعد أن تناولنا الطعام الفاخر فى منزله، أرسل معنا أحد أبنائه بالعربة ليوصلنا إلى الميناء، كان الطريق من منزل حسن بهادر إلى الميناء يمتد لمسافة نصف ساعة، حيث كانت الطرقات والشوارع جميلة وواسعة، كما كانت الأنوار الكهربائية للسفن التى تشحن وتفرغ البضائع فى الميناء تنير المدينة وكأنها فى احتفال، ركبنا فلوكة من الميناء وذهبنا للسفينة، حيث قضينا الليل فى الميناء.

العاصفة

تحركنا من الميناء ظهر يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر ديسمبر بعد أن ودعنا حسن على بهادر الذى أتى لتوديعنا، كانت المسافة من كراجى حتى بومباى بالسفينة ثمانى ساعات، وبمجرد أن خرجنا من الميناء هبَّت عاصفة قوية كانت تزداد فى قوتها كلما مر الوقت، وعند المساء اشتدت العاصفة جدا لدرجة أن السفينة كانت ترتفع وتنخفض، كانت تجرى فى موج كالجبال، ولم يكن فى

الإمكان الوقوف على سطح السفينة من المياه التى قذفت بها الأمواج على السفينة، كما لم يكن فى الإمكان النوم فى القمرات التى ارتفعت فيها المياه مقدار متر، فلففت نفسى بمشلح، وجلست على أحد درجات سلم القمرات وعلى الرغم من أن رأس السلم كان محفوظًا، فإن الأمواج العاتية عندما كانت تلقى بالمياه فى السفينة، كنت أغرق فى المياه عن آخرى، وقد رأيت فى المكان الذى كنت أجلس فيه أن المياه التى دخلت قمرتى جرفت صندوقى الذى به أغراضى، كان يوجد بالسفينة ما يقرب من مئة جواد تم تحميله من البصرة والمحمرة، وعندما رأيت من نافذة السلم أن الأمواج العاتية ألقت فى المياه بواحد أو اثنين منهم، خشيت على نفسى جدا من أن تأتى تلك الأمواج وتلقى بى فى المياه مثلما ألقت بالخيول.

كان قميص النجاة المصنوع من الفلين معلقًا عند رأس السرائر، وعندما أردت أن أرتدى واحدًا منها من قبيل المثل القائل (الساقط فى البحر يلتف بثعبان)، إلا أننى لم أستطع أن آخذ واحدًا من تلك القمصان بسبب خوفى من أن تجرفنى المياه وأغرق، وحينئذ انقطع كل أملى فى الحياة، وحتى لو غرقت السفينة وبقى فى مياه المحيط الهندى الواسع الفسيح من بقى ممن ارتدوا طوق النجاة فمن سيراهم يا ترى ومن سينقذهم.

لم يكن هناك إمكانية للتعقل فى هذا الوضع المخيف المفقود الأمل.

مرت تلك الليلة واليوم التالى الموافق الخميس وليلته أيضًا على هذا الحال، وفى يوم الجمعة انهمر المطر بشدة، وعلى الرغم من أن الرياح والأمواج سكنت قليلاً؛ فإننا لم نستطع المشى والتحرك فى أرض السفينة، وأول ما بدا لنا من بومباى مصابيح الميناء، ولم نتمكن من دخول الميناء إلا بعد ساعة، وذلك بإرشاد سفينة كانت تقف عند مضيق الميناء، وبينما كانت المسافة إلى بومباى ثمانى وأربعين ساعة، فإننا قطعناها فى ستين ساعة بسبب العاصفة، وقد كان ظهور العاصفة فى هذا الوقت من العام خاصة فى المحيط الهندى يمثل خارقة لم تحدث قبل ذلك، وقد وصلت أخبار إلى بومباى أن سفينة كان على متنها ثمانمائة شخصٍ تحركت من كراجى قد غرقت بسبب العاصفة.

على الرغم من أن مدخل ميناء بومباى ضيق؛ فإن الميناء من الداخل واسع للغاية، يشبه البحيرة، كان يوجد بوسط هذه البحيرة جزيرة أو اثنتان كبيرتان، والفنار الذى يوضح مدخل الميناء لونه أبيض ويفتح ويغلق مثل العين، ولكن عندما تدخل السفن إلى الميناء يغير لونه إلى اللون الأحمر، وتقع مدينة بومباى على رأس تشبه نصف الجزيرة تتجه إلى البحر مباشرة على الناحية اليسرى من مدخل الميناء، أما يمين الميناء فهو عبارة عن القرى.

وفى المساء ركبت فلوكة من السفينة ونزلت بالميناء المسمى (آبولو بندر) ونزلت فى فندق يبعد عن الميناء عشر دقائق، ويتسمى بنفس الاسم، ولم أنظر إلى حالة الجوع الشديدة التى اعترتنى؛ لأننى كنت متعبًا للغاية بسبب عدم نومى لثلاثة أيام أثناء العاصفة، فنمت دون أن أتناول الطعام، ونمت حتى ظهر اليوم التالى، أما رفيقى عارف بك فقد نزل ضيفًا فى منزل أحد الهنود العائدين من زيارة العتبات المقدسة، وأسس معهم رابطة الصداقة والألفة.

وبعد الظهر ذهبت إلى منزل وكيل تجار السلطنة السنية فى بومباى السيد إسماعيل بك، وكان منزله يقع فى حى (مالا بارهيل) الذى يعد حيا صيفيا لبومباى، وعلى الرغم من أن السفن التى تبحر من المحيط الهندى إلى البحر الأبيض المتوسط لم تكن قليلة؛ فإننى لم أتجرأ على ركوب سفينة أخرى والعبور بها من منطقة إلى منطقة على المحيط الهندى؛ لما عانيته من خوف بسبب العاصفة، كما أنه لم يكن من العقل أن آتى إلى الهند وأرحل دون أن أطلع على عادات وأصول الأهالى، وأشاهد الأشياء التى تستحق المشاهدة، وقد علمت أن إحدى السفن الكبرى التابعة لشركة (به ننسلر) ستتحرك بعد أسبوع، فرجحت الإقامة فى بومباى انتظارًا للسفينة.

فتحت صندوقى الذى غرق فى المياه فى السفينة أثناء العاصفة، فوجدت الأشياء التى به قد ابتلت فقمت بنشرها فى الغرفة حتى تجف، وبينما كنت أقوم بذلك كان يقف معى شخص بغدادى (لم أعد أتذكر اسمه) كان إسماعيل بك وكيل التجار قد أوصاه بأن يكون معى مترجمًا ومرشدًا، وعندما شاهد هذا الشخص سجادة منسوجة من الحرير الإيرانى بين الأشياء التى معى قال لى: «إن

الإنجليز هنا يدفعون ثمنًا غاليًا لمثل هذا النوع من السجاد، لو تريد بيعها أريتها لهم ". وكنت قد اشتريتها بأربع ليرات، وطمعت عندما قال لى هذا الرجل إنه سيبيعها بأربعين أو خمسين ليرة، فسلمتها له، أخذ يتجول بالسجادة هنا وهناك، ولم يعد حتى يوم تحركى من بومباى[1]، وأخبرونى بأنها قد ضاعت، لم يكن لدى وقت لرفع دعوى، إضافة إلى أننى اخترت الصمت؛ لأن هذا العمل كان قد أخجل إسماعيل بك كثيرًا، ولكننى ـ حقيقة ـ لم أستطع أن أنسى ألم تلك الخديعة.

وبومباى اليوم بلدة كبيرة بها ما يقرب من ثمانمائة ألف نسمة، وأهلها على صنوف مختلفة، فمنهم: المسلمون والفرس والبانيان والهندوس، وبخلاف ما ذكر توجد مجموعة برتغالية أخرى فى المدينة.

أهل الإسلام

والمسلمون بها على مذاهب إسلامية مختلفة، أما زيهم فهو عبارة عن لباس أبيض وقميص، عليه صدارى، ويضعون على رءوسهم الطاقية أو العمامة، أما صداريات وطواقى الأغنياء فهى من القماش المطرز، ومنازلهم عبارة عن أبنية خشبية ملاصقة لبعضها البعض فى الطرقات الضيقة، يبلغ كل مبنى منها أربعة أو خمسة طوابق، وأحيانًا تقيم عدة عائلات فى منزل واحد، ولأن الطابق السفلى من تلك المنازل مقام على أعمدة من ناحية الشارع، وأحيانًا ينسحب إلى الداخل مباشرة؛ يوجد أمام كل باب فتحة تشبه السد، كما توجد شرفة فى كل طابق، ويتاجر المسلمون فى كل أنواع التجارة الكبيرة والصغيرة، ولهم العديد من الجوامع والمساجد، منها ما هو كبير وبه فنون.

الفرس

هم الفرس الذين يعبدون النار، وقد هاجروا من إيران إلى بومباى، واستقروا بها قبل ثلاثمائة وخمسين أو أربعمائة عام، ويعبدون أيضًا الشمس فى معابدهم

---

(١) بومباى: عاصمة ولاية ماهاراشترا فى الهند وهى واحدة من أكبر المدن فى العالم مساحتها ٢٤٤ كم وتقع على الساحل الغربى للهند، وهى المركز الاقتصادى والتجارى للهند. (المترجم)

بخلاف النار، وينزلون إلى ساحل البحر كل ليلة وقت الغروب، ويسجدون للشمس، ويغسلون وجوههم بماء البحر، والنيران التى فى معابدهم لم تطفأ قط فقد جلبوها معهم من معابدهم فى إيران عندما هاجروا منها، ولا يدفنون موتاهم فى القبور، بل يتركونها داخل أبراج دائرية الشكل بدون أسقف تقع فى حدائق معابدهم الواقعة فى منطقة (مالا بار هيل)، حيث يطعمون بها الصقور، ذهبت إلى هناك خصيصًا لأرى تلك الأبراج، كانت مجموعة من الصقور تقف على تلك الأبراج، وعندما يترك عمال القبور النعوش عليها تهجم الصقور، وتنهى عملها فى دقائق معدودة، ثم تعود إلى أماكنها، ثم يقوم العمال بجمع العظام بعد ذلك ويحرقونها، ويعطون الرماد لمن يريده، وإن لم يكن هناك من يريده يلقوه فى البحر أو فى الهواء.

ويعد أثرياء صرافى بومباى من هذه الطائفة، ففى أيديهم كل شئون الصرافة المتعلقة بالبنوك، وكل منازلهم وأحيائهم تقع داخل حدائق على الطراز الأوروبى.

وعلى الرغم من أن زيهم مثل الأوروبيين، فإنهم يرتدون عمامة طويلة من الجلد الأسود على رءوسهم، وتشبه هذه العمامة القبعة الحلزونية. وجوههم وسيماهم بيضاء ويشبهون الإيرانيين، أذكياء للغاية ومجتهدون، ويرسلون أولادهم إلى لندن للتعلم؛ لذا تجدهم كلهم موظفين فى كل دوائر الحكومة.

البانيان

البانيان هم عبدة الأوثان بمختلف أشكالها، وبخلاف معابدهم الكبرى يوجد لهم معابد صغيرة فى الطرقات تفتح على الطريق وكأنها حانوت، ينيرون تلك المعابد بالليل، ويجلس الرجال فى ناحية، والنساء فى ناحية أخرى، ويقوم قسم منهم ويغنون بواسطة البيانو اليدوى المسمى (آرمونيفلوت)، والأصنام كلها على أشكال قبيحة، ومعظمها على شكل الحيوانات، ويضع معظم البانيان على خصورهم وفى وسط جباههم علامات أحيانًا تكون حمراء وفى حجم البندق، وأحيانًا بيضاء وصفراء، وهى علامات لتوضيح المذاهب التى ينتمون إليها، بشرتهم سمراء، ويرتدون قمصانًا طويلة فضفاضة تصل إلى القدم، تشبه

الملاءات يلف الواحد منهم الطرف الأمامى لهذا القميص من عند الفخذ، ويربطه بالناحية الأخرى، وهم بذلك لا يرتدون سروالاً، ويوجد لهم بنطال ضيق، وأحيانًا يلفون على البنطال قماشًا باللون الأصفر أو الأحمر، ويضعون على رءوسهم طربوشًا صغيرًا للغاية ويكون مثلثًا أو دائريا أحمر اللون يشبه القبعة التى ترتديها النساء الأوروبيات ويطلقون عليها (قابوت)، وبعضهم يلف العمامة، وعندما يخرج البانيان إلى أعمالهم صباحًا لا يفتحون حوانيتهم ولا يشرعون فى أعمالهم وحرفهم إلا إذا غسلوا وجوههم ببول إحدى الأبقار التى تسير فى الطريق؛ لذا توجد العديد من الأبقار الحمراء ذات القرون تتجول فى طرقات أحياء البانيان، ويتجمع حولها مجموعة من الرجال ينتظرون تبولها.

ويعتقد البانيان بتناسخ الأرواح، حيث يعتقدون بأن الشخص الذى يموت يعود إلى الدنيا فى قلب حيوان، أما الشخصيات المقدسة فتعود إلى الدنيا فى شكل أبقار.

ولعل هذا هو السبب فى تقديسهم للأبقار والثيران، وتوجد فى بومباى دار للحيوانات باسم (بينجرا يول) خاصة بالحيوانات التى أصبحت لا تقوى على العمل، حيث يتركها أصحابها هناك حتى تموت بشكل طبيعى.

ويشتغل البانيان بكل أنواع التجارة، وهم عبدة الأصنام الذين يذهبون للبلدان الأجنبية للتجارة، وعندما ينوى أحد البانيان الذهاب إلى الأماكن البعيدة للتجارة، يذهب أولاً إلى قساوستهم الذين يطلقون عليهم (براهمان)[1] ويجعلونهم يسجلون فى سجلات خاصة كم سيكسبون فى تلك الرحلة، ولا يعودون إلى أوطانهم ما لم يحققوا هذا المبلغ المذكور فى السجل، ولا يستطيعون أن يصطحبوا معهم أولادهم، وإذا ما طالت غيبتهم ورجعوا إلى أوطانهم ووجدوا زوجاتهم قد أنجبن فهم مجبرون على الاعتراف بهؤلاء الأولاد، ولا يدفن البانيان موتاهم، بل يضعونهم على أخشاب مستوية ويغطونهم ويحمل تلك الخشبة أربعة أشخاص

---

(١) براهمان: هو الإله الأعظم الأكبر فى الوجود، لا يمكن رؤيته لكن تتجلى أسماؤه وصفاته فى باقى الآلهة الأدنى منه وترى تجليات براهمان فى الآلهة الهندوسية. (المترجم)

على أكتافهم، ولا توجد لهم مزارات، حيث يقومون بجمع جنائزهم فى يوم ما ويحرقونها ليلاً فى مكان خاص بذلك، وقد ذهبت لرؤية حرق جنائز البانيان ذات ليلة بتصريح من البراهمان، حيث يقومون بجمع كومة من الحطب فى فناء مربع الشكل محاط بأربعة حوائط ويضعون الجثث بين الحطب ويسكبون فوقها بعض الكيروسين ويضرمون فيها النيران، وأثناء احتراق الجثث يقوم عمال المزار بالضرب على الدف ودق الأجراس (تصدر صوتًا يشبه صوت سلاسل السفينة)، ويظل العمال يضربون ويدقون على الأجراس حتى انتهاء احتراق الجثث، وعند حرق الجثث لا يوجد أحد من أقارب الشخص الذى مات، حيث يقوم بهذه المهمة مجموعة من العمال المخصصين لذلك، ولا توجد قناديل أو مصابيح تضىء المكان سوى ألسنة اللهب الزرقاء المنبعثة من احتراق الجثث، حقيقة، إن منظر هؤلاء العمال بجلودهم التى تشبه لون القهوة، وملابسهم الحمراء وكأنهم الزبانية، وألسنة اللهب الزرقاء ذات الرائحة الكريهة، والأصوات المخيفة للأجراس والدفوف، كل هذا جعل فرائسى ترتعد من الخوف، وبعد أن تصبح النعوش والأحطاب رمادًا، تبدأ رءوس الموتى فى الانفجار وكأنها قذائف مدفع، وهو ما زاد من خوفى، حقيقة لقد خفت كثيرًا فى هذه الليلة ولم أستطع النوم.

وكان من عادات البانيان قبل خمسين سنة أنه إذا مات شخص وكانت له زوجات على قيد الحياة، يحرقن معه.

ولكن الإنجليز عارضوا هذا الموضوع بشدة، وهو ما جعل البانيان يتخلون عن هذه العادة الوحشية إلا أن المتعصبين منهم، وخاصة البراهمان، غير راضين عن هذا المنع، ويقال إن هذا الإجراء لا يزال يتبع سرا فى القرى التى لا يوجد بها موظفون إنجليز.

وعند البانيان صنف من البراهمان مقدس، يقدسونه لدرجة الألوهية، ولا توجد لهم خدمة فى المعابد، ولكنهم رجال يعيشون فى هناء فى عالمهم، ولهم صلاحيات عجيبة تجعلهم يأخذون ما يشاءون من ثروة الأغنياء، ويصرفونها كما

يشاءون، ويدخلون أى بيت، ويطلبون أى امرأة تحلو لهم، وتعتبر تلك النساء اللواتى جامعهن هؤلاء البراهمان هذا الجماع بمثابة الفخر لهن، فإذا ما نتج عن هذا الجماع ولد فإنه سيكون براهمان وله نفس الحقوق والامتيازات.

الهندوس

الجنس الذى يطلق عليه هندوس عباد للأوثان مثل البانيان ويحرقون موتاهم أيضًا، بشرتهم بنية اللون، وشعورهم مثل شعور الزنوج، ولباسهم عبارة عن قطعة من القماش خاصة بستر العورة فقط، يمررونها من بين أفخاذهم ويربطونها على خصورهم، أما ألبسة النساء فهى عبارة عن لباس أحمر اللون، غاية فى القصر، وقميص بدون أكمام يغطى صدورهن فقط وعلى هذا فإن أذرعهن وأفخاذهن وخصورهن مكشوفة، ولأن طبقة الهندوس من الفلاحين والعمال؛ فإنهم يتعيشون من الأعمال الحقيرة والخدمات الشاقة، أما مهنتا بناء الحوائط، وتحميل البضائع فكأنهما خاصتان بنساء الهندوس.

البرتغاليون

يوجد بالهند مجموعة من البرتغاليين الباقين من عهد احتلال البرتغال للهند، وهم مثل البرتغاليين الذين نعرفهم، ويرتدون الزى الأوروبى، ويشتغلون فى مهن الحلاقة والخدمة وتنظيم الموائد فى الفنادق، وتنظيم القمرات فى السفن.

وألبسة نساء الفرس أو البانيان على طراز واحد، وترتدى بعضهن البنطال المصنوع من أجود أنواع القماش الهندى، وعليه قميص رقيق حتى ركبتهن، ويرتدين على القميص أحيانًا خرقة قصيرة، والأكثر منهن يتسترن بقماش من النوع الجيد أيضًا يمررنه على الكتف اليمنى حتى خصورهن، ويجعلن الكتف اليسرى مكشوفة، ومنهن أيضًا من ترتدى بنطالاً وقميصًا رقيقًا، وصدارى قصير بدون أكمام حتى صدورهن، وبذلك تكون صدورهن مكشوفة، وأقدامهن عارية، والقمصان القصيرة الرقيقة لا تمنع من رؤية خصورهن، ويعلقن الخواتم على الأصابع الكبرى لأقدامهن، ويعلقن الخلخال على أقدامهن، كما يرتدين الأساور فى أذرعهن بالقرب من أكتافهن، وعلى الرغم من وجود العربات فى بومباى

بأكملها؛ فإن طبقة الأثرياء يمتلكون «تختر» يتجولون به فى الطرقات، يحمل هذا التختر رجلان على أكتافهما؛ واحد من الأمام والآخر من الخلف، ويضطر من يجلس بهذا التختر - الذى يشبه الصندوق الزجاجى الذى يمتد طولاً ويرتفع قليلاً - إلى الجلوس وكأنه مضطجع، أما طبقة العوام فيستعملون العربات العادية ذات العجلتين التى يجرها زوج من الثيران.

والقسم القديم من المدينة بعيد ومرتفع، ومن هناك وحتى الساحل أنشأ الإنجليز عدة أحياء جديدة، شوارعها واسعة للغاية ولها ميادين، وأبنيتها منتظمة وكبيرة، والأشجار المزروعة فى تلك الطرقات أشجار خاصة بهذا الإقليم لا مثيل لها، أما ضخامة أبنية الحكومة فهى تصيب بالحيرة، أما محطة السكك الحديدية الكبيرة فهى تفوق المحطات التى رأيتها فى أوروبا؛ بضخامتها وفنونها المعمارية، والقصور والفنادق التى أنشئت فى الأحياء الجديدة أكثر انتظامًا وارتفاعًا من الأبنية الأميرية، وكما توجد متاجر لبيع البضائع الأوروبية، توجد أيضًا متاجر لبيع المنتجات الصينية، وأسعار تلك البضائع المباعة هنا بالنسبة لأسعار إستانبول أرخص بكثير وهو ما يدعو للحيرة والتعجب.

وتوجد فى السوق المسمى (فروت ماركت) الإنجليزى خضراوات وفواكه نادرة، وأشياء لا مثيل لها، وقد رأيت بهذا السوق أنواعًا مختلفة من الموز ألوانها بيضاء وصفراء وحمراء فاتحة، ويوجد نوع من الفاكهة خاص ببلاد الهند فى حجم التفاحة له بذرة كبيرة يسمى (آمبا) الناضج منه لذيذ للغاية.

والمخلل منه أيضًا لذيذ، وبجوار هذا السوق الخاص بالفاكهة والخضراوات يوجد أيضًا سوق خاص بالطيور والبغبغان والقرود، ويباع فيه كل أنواع الطيور والببغاوات التى لا مثيل لها، ويقع هذان السوقان عند نهاية الأحياء الجديدة، ثم ترى بعد ذلك الأحياء القديمة، وبها الأنواع المشهورة من المنسوجات والمصنوعات الهندية، حيث تصنع هنا الأوانى الفضية والذهبية بدقة وإتقان كبيرين، ومن الغرائب هنا أنهم يضعون الأوانى الفضية والذهبية فى إحدى كفتى الميزان، والمسكوكات فى الكفة الأخرى، ويزنون ويبيعون على هذا الشكل، وهذا يعنى أنهم يزنون الفضة بالمسكوكات الفضية والذهب بالمسكوكات الذهبية، ويبيعون بقيمتها

المعدنية، وعلى هذا فإن الفرق بين العيار لديهم قليل جدا، ولم يستطع عقلى أن يعى من أين أتوا بتلك التجارة.

وتوجد فى بومباى حديقة للحيوانات باسم (فيكتوريا جاردن)، ذهبت إليها وتجولت بها، ورأيت هناك مجموعة من الحيوانات الوحشية والثعابين الخاصة بهذا الإقليم، وبالمدينة كثير من الرجال الذين يطلق عليهم فى التركية (شربتلى)، أى بائعو الشربات، ويطلق عليهم فى الفرنسية (شارمور)، وآخرون يتجولون فى المدينة بسلة بها مجموعة مختلفة من الثعابين، فيشاهد الأهالى ما معهم من ثعابين، ويجعلونها تقوم ببعض الألعاب والحركات، حقيقة، إن هذا أمر خارق ومخيف.

وتوجد فى بومباى مجموعة من مصانع الأقمشة والحرائر من آثار شخص يهودى باسم (داوود صاسون) كان قد هاجر من بغداد إلى بومباى، ولأن داوود صاسون قام بالعديد من الخدمات العمرانية فى بومباى؛ فقد كرَّمته حكومة إنجلترا على تلك الخدمات بأن صنعت له تمثالاً مجسمًا ووضعته فى المتحف، ولقبته بالرئيس، ويعد أولاده وأحفاده اليوم من أكبر ممولى بومباى.

لم أر فى بومباى مسرحًا منتظمًا، وعلى الرغم من أننى تعجبت من وجود مسرح أو اثنين بدون سقف هناك؛ فإننى فهمت السبب فى ذلك عندما علمت أن الأهالى لا يرغبون فى البقاء لعدة ساعات فى مكان مغلق بسبب حرارة الإقليم هناك، وتعرض فى تلك المسارح المسرحيات القومية، على أن تكون باللغة الفارسية، والمسرح، وستائره، وإجراء الصور، كلها على طرز المسارح الأوروبية، فقد اتخذوا المسرح الإنجليزى نموذجًا .

ولا توجد فى المدينة أى موسيقى سوى الموسيقى العسكرية، وعندهم نوع من الطبول يستخدم بدلاً من الدف، أما العود الهندى القومى فهو عبارة عن الكمان والطنبور اللذين يشبهان العود الرقيق عندنا.

وبخلاف ذلك، كانوا يستخدمون (الآرمنيفلوت) القادمة من أوروبا. والمقامات الموسيقية التى يتغنون ويعزفون بها على الطرز التركستانية والإيرانية، كما توجد

راقصات من البانيان كن يغنين على الألحان التى يعزفها عازفوهم، كانت تلك الراقصات يلبسن فى أرجلهن خلاخيل تصدر أصواتًا عندما يضربن بأرجلهن على الأرض مع أصوات الأجراس التى فى أيديهن محدثين بذلك صوتًا متناغمًا يفسر ما يرقصن عليه. معظم أطعمة أهالى الهند غنية بالبهارات والفلفل، ولكننى كنت آكل فى الفندق من الأطعمة الأوروبية، وعلى الرغم من أن الطعام الذى أكلته فى منزل أحد الأشخاص الذين كانوا يضيفون عارف بك، ودعانى للطعام عنده، كان لذيذًا للغاية؛ فإننى لن أنسى الاضطراب الذى حدث لمدة يومين فى معدتى بسببه.

وبالمدينة بيوت للزنا، عبارة عن أبنية على شكل الحوانيت من طابق واحد مصطفة بطول شارع كبير، وهى خاصة بالعوام، وتوجد مصاطب أمام تلك الأبنية عليها مقاعد يجلس عليها العشاق المتحابون، ويفهم المارون من هناك المقصود من هذه الجلسة، ويوجد فى تلك المنازل نساء من كل جنس وملة؛ لدرجة أنه يوجد من بينهن نساء يهوديات أتين من بلاد العرب.

وترى الإبل فى بومباى خارج المدينة، وقد رأيتها فى كراجى أيضًا، حيث تحمل تلك الإبل الأحمال فى الأماكن التى لا يوجد بها سكك حديدية، أما المكان المسمى (بونا) الواقع على مسافة خمس ساعات من بومباى فيعد بمثابة مقر إقامة الجنود الإنجليز، والمكان الصيفى لأثرياء بومباى، وتستخدم الأفيال هنا لجر عربات المدافع.

من بومباى إلى السويس

وفى مساء يوم الجمعة الموافق السابع من شهر يناير، تحركنا من بومباى فى تمام الساعة الخامسة والنصف بالتوقيت الإفرنجى بالسفينة (آرقادى) التابعة لشركة (به ننسولر)، أخذت تذكرة إلى السويس بالطعام، بأربعمائة روبية، أى ما يعادل ثلاثة آلاف قرش وكسور، وشركة (به ننسولر) شركة إنجليزية مساهمة، كان يدير معظم سفنها قباطنة من البحرية الإنجليزية، وكانت السفن التى يديرها هؤلاء الأمراء تعلق الراية الزرقاء على السفن، كانت السفينة (آرقادى) سفينة كبيرة قوتها أربعمائة وخمسون حصانًا، ولها أربعة صوار، وتستوعب ألف طن.

والسفينة تضاء بأكملها بالكهرباء، القمرة الأولى لها تقع فى منتصف السفينة، أما القمرة الثانية فكانت فى المؤخرة، يوجد فى صالاتها النافورات والحدائق المنتظمة التى تحتوى على الأشجار ونباتات الزينة، كما كان يوجد بالطابق الأرضى للسفينة مستشفى ومكتب للبريد، كما كان يباع بها بعض المستلزمات، ويوجد بها دار للعبادة وماكينة للثلج وحمامات متعددة وحوانيت.

كانت المسافة من بومباى وحتى عدن ألف وستمائة واثنين وستين ميلاً، ونحمد الله أننا قطعنا تلك المسافة فى أربعة أيام ونصف فى طقس لطيف ومياه ساكنة لم نر خلالها سوى السماء والبحر، وصلنا عدن صباح يوم الأربعاء الموافق التاسع من شهر يناير، وقد أجريت المراسم الدينية فى معبد السفينة بسبب وفاة أحد الركاب الإنجليز فى اليوم الثانى لخروجنا من بومباى، وألقى بجسده فى الماء، ولم يحدث شىء يجلب الحزن سوى هذا.

كان بالسفينة ما يزيد عن أربعمائة راكب، كنت أنا وعارف بك فقط من العثمانيين وشخص برتغالى والباقون من الإنجليز، ومن الغريب أنه لم يكن يعرف الفرنسية من بينهم سوى واحد فقط، كنت أتحدث معه بين الحين والآخر، وكنا نضيع وقتنا بمشاهدة الألعاب والمسامرات التى تتم على ظهر المركب بين الرجال والنساء من ألعاب رياضية ولعب بالكرة وعزف على البيانو.

عدن

سواحل عدن سواحل جبلية وصخرية خالية من الأشجار والنباتات، ولأن بحرها ضحل فإن السفن ترسو فى مكان بعيد عن الساحل، ولا ترى المدينة من البحر، فهى للداخل مسافة ساعة، ركبت زورقًا وخرجت به إلى الشاطئ والمكان على الساحل عبارة عن مكاتب السفن وفندقين للزوار، وعدة متاجر، ومخازن للفحم.

وتوجد ندرة فى المياه فى عدن؛ لأن المطر لا ينزل هناك إلا مرة كل سبع سنوات بحكمة الله تعالى؛ لذا يوجد فى عدن صهاريج ضخمة لتجميع مياه المطر بها، وقد أنشئت مجموعة من القنوات والمجارى المائية بين الجبال لملء تلك الصهاريج، وهى من الآثار البديعة التى لا مثيل لها من حيث المتانة والضخامة.

والعرب الذين يشتغلون بمهنة صناعة القوارب هناك من الأهالى البربر السود الذين يطلق عليهم (صوماليين)، ولهم مهارة فائقة فى شئون البحرية، وقد استأجرت قاربًا لأذهب به إلى الميناء ويعود بى إلى السفينة، وبينما كنت عائدًا إلى السفينة توقف صاحب القارب فى وسط البحر وطلب منى أجرة مضاعفة وإلا لن يوصلنا إلى السفينة.

وقد اقتربت من السفينة مجموعة من الصنادل بدون مجاديف مصنوعة من الخشب المحفور، على كل واحد منها طفل فى الثامنة أو العاشرة وأخذوا يتسولون، وكان الركاب الموجودون فى السفينة يلقون لهم بالأموال المعدنية فيغطس هؤلاء الأطفال فى المياه وكأنهم أسماك، ويخرجون بتلك النقود.

تحركنا من عدن قاصدين البحر الأحمر، وبعد الظهر مررنا من أمام جزيرة (بريم)[1] التى تطل على مضيق (باب المندب)[2] الذى يواجه مدخله مكان يسمى (أوبوخ) يقع بين اليمن وعدن، ثم دخلنا البحر الأحمر، كان على يميننا القمم الشاهقة لجبال اليمن وعلى يسارنا سواحل إفريقيا، وقد هبت الرياح أثناء خروجنا من عدن، وكانت تزداد بمرور الوقت، لكن سفينتنا ظلت سائرة طوال الليل وطوال اليوم التالى؛ ثم تحولت إلى رياح خفيفة فى يوم الجمعة التالى، فقد سكنت الرياح بهطول الأمطار الخفيفة ووصلنا السويس صباح يوم الأحد الثالث عشر من شهر يناير، أى بعد أربعة أيام ونصف من تحركنا من عدن، والمسافة بين بومباى والسويس ثلاثة آلاف ميل بحرى وكسور، قطعت السفينة (آرقادى) تلك المسافة فى تسعة أيام، بينما تقطعها السفن الأخرى فى ثلاثة عشر يومًا.

السويس

كانت مدينة السويس مدينة مهمة قديمًا، ولكنها فقدت أهميتها القديمة منذ ظهور القناة، أخذنا فلوكة من المكان الذى رست فيه السفينة ووصلنا ميناء المدينة

---

(١) جزيرة بريم: إحدى الجزر اليمنية، وهى جزيرة بركانية فى مدخل مضيق باب المندب مساحتها ١٣كم وهى تابعة لليمن. (المترجم)

(٢) مضيق باب المندب: مضيق يصل البحر الأحمر بخليج عدن والمحيط الهندى ويفصل قارة آسيا عن قارة إفريقيا، وبشكل أدق يفصل اليمن عن جيبوتى. (المترجم)

فى ساعة، وبعد أن أخذنا تذاكر القطار وتناولنا طعام الإفطار فى أحد المطاعم، وتجولنا فى المدينة، لم نستطع أن نرى فى المدينة شيئًا يلفت الانتباه سوى الحمّالين المشهورين بقذارتهم، وسفالة بعض الأشخاص كالمترجمين والمرشدين الذين يسطون على الركاب بقولهم (البقشيش)، ومجموعة من موظفى محطة السكك الحديدية وهم رجال عديمو التربية، سفلة، يحقرون الركاب.

تحرك القطار وقت الظهر، ولأننى لم أجد وقتًا لتغيير ملابسى الصيفية التى كنت أرتديها، فقد تأثرت جدا من شدة برودة الجو حتى وصلت مصر، وتعجبت من شدة برودة طقس مصر فى هذا الفصل، خاصة وأنها معدودة من الأقاليم الحارة، وبينما كنت أنام فى أحد أركان القطار متأثرًا من شدة البرد، مر القطار على خمس أو ست محطات، ثم وصلنا محطة (الزقازيق)، وهناك وجدت مجموعة من النساء العربيات يتجولن حول القطار وينادين (يوسف أفندى) فلفتن انتباهى، فنظرت من النافذة لأرى من يكون يوسف أفندى هذا التى تبحث عنه تلك المجموعة من النساء العربيات، إنهن كن يبعن اليوسفى، ففهمت أن اليوسفى فى مصر يسمى يوسف أفندى.

وصلنا القاهرة فى تمام الساعة الثامنة مساءً ونزلنا فى فندق (دوريان) المجاور لحديقة الأزبكية، ولأن المطر ظل ينهمر حتى الصباح يصحبه رعد وبرق، لم أستطع أن أخرج من الفندق فى تلك الليلة، واسترحت.

القاهرة

وفى اليوم التالى خرجت للسوق، وبعد أن اشتريت ما أحتاج إليه من ملابس، ذهبت لزيارة الغازى أحمد مختار باشا الذى كان سفيرًا فوق العادة فى مصر، دعانى لتناول الطعام، ثم تقابلت بعد ذلك بأحد الأحباء القدامى ويدعى الحاج ميرزا نجف على خان، الذى أخذ متعلقاتنا أنا وعارف بك من الفندق واصطحبنا إلى منزله ليضيفنا عنده، وذهبنا فى ذلك اليوم لمشاهدة متنزهات (الجزيرة)، ومطبعة بولاق المصرية المشهورة، وفى اليوم التالى ذهبنا لزيارة جامع الست زينب، ومحمد على الواقع على ربوة مرتفعة فى نهاية المدينة، ثم شاهدنا

الكتبخانة العمومية، والمتحف وبعض الأماكن الأخرى بالمدينة، وفى اليوم التالى الموافق الأربعاء زرنا جامعى الأزهر والسلطان حسن.

وبينما نجد فى الأحياء الجديدة فى مصر المنازل عالية على الطراز الأوروبى، والطرقات واسعة، والقصور فخمة، نجد الطرقات فى الأحياء القديمة ضيقة وممتلئة بالطين، والأبنية الموجودة بتلك الشوارع منازل على الطراز القديم مزينة بالسياج المسمى (موشارابى)، أما جامع محمد على فهو جامع ضخم بنى بالرخام المنتظم للغاية وبه مئذنتان، ونظرًا لارتفاع موقع الجامع فيمكن رؤية الصحراء والأهرام والنيل من عنده، ومن الآثار القديمة أيضًا جامع أو اثنان، ومجموعة من القبور الواقعة خارج المدينة وهى من أجمل الفنون المعمارية، والكتب خانة والمتحف يضمان أقيم الكتب النفيسة والآثار العتيقة، وعلى الرغم من أن جامع الأزهر لا يستحوذ على فنون معمارية من ناحية البناء؛ فإنه مدرسة كبرى يدرس بها علماء مصر العلوم، ويوجد بالجامع عدة مئات من الطلاب ومجموعة من المدرسين والمعلمين، ويستعمل طلاب العلوم هنا قطع الصفيح العادية بدلاً من الألواح الخشبية المصنوعة من الحجر الأسود المسماة (آردواز) أو الورق لكتابة الدروس التى يقررها المعلمون هنا.

الإسكندرية

تحرك القطار البخارى من القاهرة فى تمام الساعة التاسعة بالتوقيت الإفرنجى من صباح يوم الخميس الموافق السابع عشر من شهر يناير، ووصلنا الإسكندرية بعد الظهر بساعة، والميدان الذى يتوسطه تمثال محمد على باشا والأبنية والمحلات التى حولها كلها على الطرز الأوروبية، ذهبت لزيارة واصف عزمى باشا، أحد الأمراء المصريين وأحد أعضاء المحكمة المختلطة بالإسكندرية، وتناولت طعام الغداء والعشاء فى بيته بناءً على دعوته.

وفى يوم الجمعة التالى ركبت السفينة الروسية (روسية) التى تحركت من الإسكندرية مساءً، تابعنا مسيرنا تلك الليلة واليوم التالى فى طقس لطيف، ومررنا بجزيرة (ساقيز) فى وقت الظهر من يوم الأحد الموافق العشرين من شهر

يناير، ووصلنا ميناء إزمير بعد أذان العشاء، ولم تتمكن السفينة من أخذ رخصة بإنزال البضائع أو الركاب؛ لأن الوقت لم يكن مساعدًا فنمت تلك الليلة فى السفينة.

وفى الصباح التالى خرجت من السفينة والمطر ينهمر بشدة، وذهبت لزيارة حسين رضا باشا والى الولاية، حيث أمر الوالى المشار إليه بإخراج أغراضى من السفينة وضيفنى فى مقره عدة أيام، ولأن رفيقى فى الطريق عارف بك ذهب إلى إستانبول بالسفينة التى أتينا بها فقد افترقت عنه فى إزمير.

وفضلاً عن كرم ضيافة حسين باشا لى طوال المدة التى بقيت فيها فى إزمير، فإنه أكرمنى بمزيد عنايته بأن ودعنى حتى الميناء، عندما تحركت من إزمير متوجهًا إلى دار السعادة بالسفينة (شرقية) التابعة للشركة الخديوية يوم السبت السادس والعشرين من شهر يناير.

وقد وصلت دار السعادة فى وقت السحر من يوم الاثنين الموافق الثامن والعشرين من شهر يناير لعام ١٢٠٤رومية، وقابلت أمى التى كانت تشتاق لرؤيتى منذ أربع سنوات.

المؤلف فى سطور

عالى بك

أحد كبار المسؤولين فى الدولة العثمانية واليًا على طرابزون، وهو فى هذه الرحلة فى مهمة رسمية من قبل إدارة الديون العمومية والواردات المخصصة برتبة مفتش عام؛ إذ تم تكليفه بداية بالتفتيش على نواحى سعرد وديار بكر.

المترجم فى سطور

محمد حرب

- دكتوراه فى التاريخ العثمانى الحديث - قسم التاريخ الحديث - جامعة إستانبول.
- يعمل بالتدريس فى كلية الآداب بجامعة عين شمس.
- أسس مركز الدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى بالقاهرة ورأسه إحدى عشرة سنة.
- عمل رئيسًا لوحدة البحوث بمركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس.
- أسس مركز بحوث العالم الإسلامى والغرب فى جامعة روتردام.
- عمل نائبًا لرئيس جامعة روتردام الإسلامية فى هولندا.

من ترجماته:

- حزب الاستقلال ملحمة ناظم حكمت.
- مذكرات السلطان عبدالحميد.

من كتبه:

- العثمانيون فى التاريخ والحضارة.

- المسلمون فى آسيا الوسطى والبلقان.
- رحلة جورجى زيدان إلى الاستانة.
- رحلة الراهب سيمون إلى مصر والشام.

التصحيح اللغوى: هبة على

الإشراف الفنى: حسن كامل

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب